

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العملي  
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -



قسم اللغة العربية

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

## دروس في فقه اللغة العربية

موجهة إلى طلبة السنة الأولى جذع مشترك  
لغة وأدب عربي ( ليسانس ل.م.د.)

إعداد أ.د/ عبد الناصر بن طناش.

السنة الجامعية: 1441/1441هـ / الموافق: 2019 / 2020م.

## الدرس الأول:

## مدخل إلى فقه اللغة العربية

(نشأة المصطلح - مفهومه - الفرق بين فقه اللغة وعلم اللغة والفيلولوجيا)

### 1- نشأة مصطلح (فقه اللغة):

اهتم علماء العرب بالتأليف اللغوي من جوانبه المختلفة ، وذلك خدمة للعربية ولغة القرآن الكريم إلى أن كان القرن الرابع الهجري عصر ازدهار العلوم وتنوع الحقول المعرفية ؛ فظهر عدد كبير من علماء اللغة الذين أثروا المكتبة العربية بمؤلفاتهم اللغوية وإسهاماتهم الأدبية والفنية المختلفة . ويأتي التأليف المعجمي في صدارة التأليف وأبرزها جميعا إلى جانب كتب القراءات القرآنية، والنحو والصرف، والأصوات، وغيرها.

وتعد البداية الحقيقية لفقه اللغة - كعلم مستقل - ما ظهر على يد علمين من علماء اللغة الكبار في القرن الرابع الهجري؛ اللذين كان لهما أكبر الأثر في التأليف في حقل (فقه اللغة) .

فأما الأول فهو: أبو الحسين أحمد بن فارس (395هـ): الذي ألف مجموعة من الكتب اللغوية وغير اللغوية، ومنها كتابه المشهور: (الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها). وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أمور عديدة لعل أهمها كونه أول كتاب في العربية يحمل اصطلاح (فقه اللغة) ، وبه تأثر المؤلفون من بعده، واتخذوا هذا الاصطلاح (فقه اللغة) فنا لغويا مستقلاً.

وقد ذكر المؤلف سبب عنوان الكتاب بهذا العنوان كونه هدية أودعها صديقه الوزير الصاحب بن عباد (ت 385 هـ) فقال: " وإنما عنوانته بهذا الاسم لأني لما ألفتها أودعته خزانة (الصاحب) الجليل كافي الكفاءة، عمّر الله عِراض العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره، تجملا بذلك وتحسنا، إذ كان يقبله كافي الكفاءة من علم وأدب مرضيا مقبولا، وما يرذله أو ينفيه منغيا مردولا، ولأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ومفاد منه... " (1)

وكان ابن فارس قد عالج في مادة كتابه هذا عددا من الموضوعات التي تعد من صميم فقه اللغة، فجمع فيه ما تفرق في كتب من سبقه، فقال رحمه الله في مقدمة كتابه: " والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرق في أصناف العلماء المتقدمين - رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء. وإنما لنا فيه اختصار مبسوط، أو مبسط مختصر، أو شرح مشكل، أو جمع متفرق " (2) .

ثم شرع بعد ذلك رحمه الله في أبواب الكتاب التي تعد النواة الأولى في فقه اللغة، كحديثه عن نشأة اللغة، والخط العربي، وعن خصائص اللغة، ومزاياها . وكحديثه عن اختلاف اللغات ، وأقسام الكلام، ومعاني الحروف. وكحديثه

<sup>1</sup> - الصاحبي في فقه اللغة ، أحمد بن فارس ص 33.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه ، ص 35

عن الخطاب المطلق والمقيد، وعن الحقيقة والمجاز، والقلب، والإبدال، والعموم، والخصوص، والحذف والاختصار، والإتياع، والنحت، والإشباع، وغيرها.

والعالم الآخر: هو أبو الفتح عثمان بن جني (392هـ) في كتابيه: (الخصائص) و(سر صناعة الإعراب).

وقد عرف ابن جني بأنه كان رجلاً جَدِّ، وامراً صدق في فعله وقوله؛ فلم يعرف عنه اللهو، والشرب، والمجون. فكان عفاً للسان والقلم يتجنب البذي من الألفاظ، ولم يكن همه إرضاء الملوك ومناذمتهم كحال أدباء عصره.

أخذ النحو عن علماء عصره يتقدمهم أستاذه أبو علي الفارسي (ت: 377هـ)، وأخذ عن كثير من رواة اللغة والأدب. اجتمع ابن جني بالمتنبي (ت: 354 هـ) في حلب عند سيف الدولة الحمداني (ت: 356هـ)، وفي شيراز عند عضد الدولة البويهبي (ت: 372هـ). وكان المتنبي يجله ويقول فيه: " هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس " <sup>3</sup> . وكان إذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره يقول: " سلوا صاحبنا أبا الفتح ". وكان يقول: " ابن جني أعرف بشعري مني ". <sup>(4)</sup> وكان ابن جني يعجب بشعر المتنبي، ويستشهد به في المعاني، وهو أول من شرح ديوانه، وله في ذلك شرحان: كبير و صغير.

أولاً: كتاب ( الخصائص ): عالج فيه ابن جني كثيراً من قضايا فقه اللغة، وقدم آراءً تجاري أو تفوق أحدث ما قال به العلماء في العصر الحديث. فتحدث عن موضوعات كثيرة تعد من صميم فقه اللغة، ومنها حديثه عن أصل اللغة، ومقاييس العربية، وتداخل اللغات، والاشتقاق الأكبر، والعلاقة بين الألفاظ والمعاني، والتقديم والتأخير، والإبدال.....

ثانياً: كتاب ( سر صناعة الإعراب ): وقد خصه ابن جني لدراسة الأصوات؛ فكان أول عالم في العربية يفرد هذا البحث بكتاب مستقل؛ حيث كانت دراسة الأصوات قبله تدرُس ضمن بحوث النحو كما في "الكتاب" لسيبويه (ت: 180هـ)، و"المقتضب" للمبرد (ت: 285هـ). وقد قدم ابن جني في كتابه مباحث قيمة في علم الأصوات مستفيداً من سابقه، ومضيفاً إليه الكثير؛ فهو في مقدمته يتحدث عن الفرق بين الصوت والحرف، ويُشبه الحلق والفم بالناي، ويذكر أن الحركات أبعاض حروف المد. ثم يتحدث عن الحروف، ومخارجها، وأجناسها، ومدرجاتها، وفروعها المستحسنة، والمستقبحة، وذكر خلاف العلماء فيها مُستقصى مشروحاً. وبعد ذلك يعقد

<sup>3</sup>-معجم الأدباء ياقوت الحموي 89/2 و 102.

<sup>4</sup>-شذرات الذهب في أخبار من ذهب. لابن العماد 141/3.

لكل حرف من حروف العربية مرتبة على الحروف الألفبائية باباً يتكلم فيه على صفاته، ومخرجه، وما يعرض له من قلب، أو إبدال، أو إدغام، كما يتعرض لكثير من القضايا النحوية.

كما تحدث عن تصريف حروف المعجم، واشتقاقها، وجمعها، وتحدث أيضاً عن مذهب العرب في مزج الحروف بعضها ببعض، وما يجوز من ذلك وما يمتنع، وما يحسن وما يقبح إلى غير ذلك مما حفل به ذلك الكتاب. ويبدو في الأخير أن الناظر في هذا الكتاب يلحظ فيه مزايا عديدة منها على سبيل الأجمال: غزارة المادة، والوضوح، والسهولة، والشمول، والاستقصاء.

**كتب أخرى مؤلفة في فقه اللغة:** ظهر بعد الكتب السالفة كتب كثيرة في فقه اللغة منها على سبيل المثال :

\* كتاب "فقه اللغة وسر العربية" لأبي منصور الثعالبي (ت: 430هـ): وهو الكتاب الثاني الذي وصل إلينا حاملاً مسمى (فقه اللغة) بعد كتاب (الصاحبي) لابن فارس. وعنوان هذا الكتاب لا يطابق مسماه تماماً، إذ هو معجم للمعاني في مجمله، وفيه بعض الفصول في فقه اللغة في بابه التاسع والعشرين (29)، كحديثه عن أساليب العربية في التعبير من حقيقة ومجاز، وتقديم وتأخير، وحذف واختصار. وفيه حديث عن الإبدال، والقلب، والنحت، وغيرها.

\* كتاب "المخصص" لابن سيده الأندلسي (ت: 458هـ) : وهو معجم قيم ضمنه المؤلف بعض المباحث في نشأة اللغة، والتضاد، والإشتراك، والتعريب، والتذكير، والتأنيث، والمقصود والمنقوص.

\* كتاب "المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم" لأبي منصور الجواليقي (ت: 540هـ) و قد قدم له المؤلف بالحديث عن الألفاظ المعربة، ومذاهب العرب في استعمال الأعجمي، وكيف نتعرف على ذلك.

\* كتاب "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" لجلال الدين السيوطي (ت: 911هـ). وهذا الكتاب موسوعة في علوم اللغة، وقد ضمنه موضوعات لغوية عديدة اقتبسها من كتب السابقين، ورتبها وعرضها عرضاً جيداً؛ حيث جعل مؤلفه في خمسين نوعاً: ثمانية في اللغة من حيث الإسناد، وثلاثة عشر من حيث لطائفها ومُلحُها، وواحد راجع إلى حفظ اللغة وضبطها، وثمانية راجعة إلى حال اللغة وروايتها، ونوع لمعرفة الشعر والشعراء، والأخير لمعرفة الأغلاط. وفي ضمن هذه الأنواع مادة واسعة حول نشأة اللغة،

و المصنوع و الفصيح، و الغريب، والمستعمل والمهمل، و اللغات، و اللهجات، و الإبدال، و القلب، والنحت، و الاشتقاق، و المجاز، و المترادف، و المشترك، و التضاد و غيرها من البحوث اللغوية.

## 2- دلالة مصطلح "فقه اللغة"

أ- مفهوم كلمة (فقه) :

- لغة: تتفق معاجم اللغة العربية على أن المعنى اللغوي الذي تدور حوله كلمة "فقه" هو "الفهم"، فهذا الراغب الأصفهاني (ت: 403هـ) يوضح مدلوله بقوله: "يقال فُقه الرجلُ فِقَاهَةً إِذَا صار فقيهاً، وِقَّةً أي فهِمَ فِقْهًا، و فِقَّهَهُ أَي فِهَمَهُ، و تَفَقَّهَ إِذَا طلبَهُ فتخصص به، قال الله تعالى: "لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ". التوبة/122"5 و ذكر الزمخشري (ت: 538هـ) في كتابه "أساس البلاغة" قوله: "... و قال أعرابي لعيسى بن عمر(ت: 149هـ): شهدت عليك بالفقه أي بالفهم والفتنة، و جاء في الحديث الشريف: "من أراد الله به خيراً فقهه في الدين". و فقهتُ فلاناً كذا و أفقته إياه. فهتته فقهته، و تفقهه...".6

و في لسان العرب لابن منظور (ت: 711هـ) ذكر أن الفقه: العلم بالشيء و الفهم له و غلب على علم الدين لسيادته و شرفه و فضله على سائر أنواع العلم... و الفقه في الأصل الفهم. يقال: أوتي فلان فقهًا في الدين أي فهما فيه. قال الله عزوجل: " لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ". " أي ليكونوا علماء به. و فقهه الله... و فقهه فقهًا: بمعنى علم عِلْمًا (ابن سيده الأندلسي). و قد فقهه فقاهاً، و هو فقيه من قوم فقهاء...".7 و قال أيضاً: " و فقهه الشيء: عِلْمُهُ، و فقهه و أفقته: عِلْمُهُ، و في التهذيب و أفقته أنا رأيي بينت له تعلّم الفقه، ابن سيده: و فقهه عنه بالكسر: فهِمَ... و رَجُلٌ فُقُهُ، فقيه، و الأنتى: فُقُهُ".8

و مما تقدم حول استعمال مادة (فقه) في كتب المعاجم يمكن أن نستنتج الآتي:

- 1- دوران لفظ (الفقه) حول معنى (الفهم)، و يمكن أن يكون بمعنى (العلم) "ليتفقهوا في الدين" أي ليكونوا علماء، و فقهه فقهًا بمعنى علم علماء.
- 2- لمادة (فقه) صيغتان هما: فقهه (بالكسر) في عين الفعل - و فقهه (بالضم) في عين الفعل، فنقول فقهته و فقته و فقهه، و فقهه فقهًا سواء .
- 3- يتوسع معنى لفظ (فقه) ليشمل (فقهه، وأفقته) كما ثبت عند الراغب الأصفهاني.
- 4- يمكن حصر معنى (الفقه) في الدلالة اللغوية على "فهم معاني الكلام أو الدلالات فهما مستوعبا يكشف ما خفي منها استنباطاً أو تنبهاً".9

5- معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ص 290، مادة: (فقه)

6- أساس البلاغة، للزمخشري ص 346. مادة: (فقه)

7- لسان العرب، ابن منظور ج 150/5 مادة: (فقه)

8- المصدر نفسه ج 150/5 مادة: (فقه).

9- ينظر. علم فقه اللغة العربية أصله ومسائله د. محمد حسن حسن جبل ص 8.

وحين نتأمل استعمالات القرآن الكريم لكلمة ( الفقه ) نجده ينسبها إلى القلب في المواضع الآتية وهي:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...﴾ (الأنعام/25)

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْوَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا نِعَامًا بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾ (الأعراف/179).

وقوله تعالى: ﴿.....رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة/78).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة/127).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (الإسراء/46).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ، إنا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (الكهف/58).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون/3).

استعمال القرآن لكلمة (فقه) بمعنى الكلام أو القول .

نسجل ورود كلمة (فقه) مركبة و مستعملة في القرآن الكريم عشرين مرة (20) منها <sup>10</sup> :

\* تسع مرات وردت فيها الكلمة منصبة على القول صراحة <sup>11</sup> كنحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا: يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ (هود/91)

\* أو دالة على التسييح و هو فيما يؤول إليه المعنى قول في قوله تعالى: ﴿تَسْبِخُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء/44)

\* أو على القرآن الذي هو كلام الله تعالى في نحو: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (الأنعام/25)

\* أو على الدين و هو من كلام الله تعالى و كلام رسوله كما تقدم ، كنحو قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ (التوبة/122).

<sup>10</sup> - الآيات و السور التي حوت كلمة فقه مركبة هي: النساء/78 الأنعام/25 و 65 و 98، الأعراف/179، الأنفال/65، التوبة/81 و 78، و 122 و 127، هود/91، الإسراء/44 و 46، الكهف/57 و 93 و طه/28، الفتح/15، الحشر/13، المنافقون/3، 7.

<sup>11</sup> - الآيات الأخرى الدالة على القول صراحة مما تبقى من التسعة هي في: النساء/78، الإسراء/46، الكهف/57 و 93، طه/28 ملاحظة/ يمكن العودة إلى "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" لفؤاد ع الباقي للوقوف عند مادة: " فقه " لتحديد الآيات التي وردت بهذا اللفظ و توضيح دلالتها بالعودة إلى معجم مفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهاني و كتب التفسير الأخرى.

## ب- مفهوم كلمة (اللغة)

– لغة: اللغة: فُعَلَةٌ من كَعَوْتُ أي تكلمت. وأصلها لُغُوَّةٌ، وقيل: لُغِيٌّ أو لُغُوٌّ (فُعَلٌ) والهَاءُ عوض. وجمعها لُغِيٌّ، ولغات، ولُغُونٌ<sup>12</sup> واللغة: اللسُنُ والنُطْقُ، يقال: هذه لغتهم التي يلغون بها، أي: ينطقون.<sup>13</sup> ولُغُوِيٌّ الطَّيْرُ: أصواتها<sup>14</sup>. واختلف في أصل اشتقاق المادة، فقيل:

1- أخذت من الميل، في قولهم: لغا فلان عن الصواب إذا مال عنه. قال ابن الأعرابي (231هـ): "واللغة أخذت من هذا، لأن هؤلاء تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين."<sup>15</sup>

2- أخذت من اللُّهَجِ بالشيء، قال أحمد بن فارس: "...لَعِيَ بالأمر: إذا هَجَجَ به، ويقال: إن اشتقاق اللغة منه، أي يَلْهَجُ صاحبها بها."<sup>16</sup>

3- وقيل مصدرها: اللُّغُوُّ وهو الطرح، فالكلام لكثرة الحاجة إليه يُرْمَى به."<sup>17</sup>

– اصطلاحاً: ورد في تعريف (اللغة) اصطلاحاً عدة تعريفات نختار منها تعريفين اثنين هما:

الأول: لأبي عثمان بن جني (392هـ) يقول فيه: حد اللغة "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"<sup>18</sup>.  
الثاني: لمرتضى الزبيدي (ت: 1205هـ): يقول فيه "الكلام المصطلح عليه بين كل قبيل."<sup>19</sup>  
فهذان التعريفان -وغيرهما من التعاريف- متقاربة في الدلالة على اللغة اصطلاحاً، وإن اختلفت -تعايير أصحابها- ويلاحظ أن أصحابها يجعل اللغة الطريق الذي يحصل به التفاهم بين اثنين عن طريق النطق بالألفاظ، أي أن عمدة اللغة الألفاظ التي يتداولها القوم الذين اصطالحوا عليها بحيث لو تواصلوا بغيرها لم يحصل بينهم تفاهم.

## – مفهوم كلمة (فقه اللغة) اصطلاحاً:

يطلق فقه اللغة في الاصطلاح على "العلم الذي يعنى بدراسة قضايا اللغة؛ من حيث أصواتها، ومفرداتها، وتراكيبها، وفي خصائصها الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، وما يطرأ عليها من تغييرات وما ينشأ من لهجات، وما يثار

<sup>12</sup> - ينظر في جمع لفظ اللغة: كتاب العين الخليل بن أحمد الغراهيدي، تح: عبد الحميد هندواي ج4، ص62 مادة (لغ/لغو)

<sup>13</sup> - لسان العرب ابن منظور، ج6 ص508 مادة (لغا).

<sup>14</sup> - المصدر نفسه، ج6 ص508 مادة (لغا).

<sup>15</sup> - المصدر السابق، ج6 ص508 مادة (لغا).

<sup>16</sup> - مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ج5 ص256 مادة: (لغو)

<sup>17</sup> - تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي ج29 ص462. مادة: (لغو)

<sup>18</sup> - الخصائص، ابن جني، ج1، ص34

<sup>19</sup> - تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي ج39، ص462. مادة: (لغو).

حول العربية من قضاياها، وما تواجهه من مشكلات...<sup>20</sup> ويمكن أن نوجز هذا التعريف بعبارة أخرى: بأنه العلم الذي يعنى بفهم اللغة ودراسة قضاياها، وموضوعاتها.

**ج) - الفرق بين فقه اللغة وعلم اللغة:** اختلفت آراء العلماء في الفرق بين هذين المصطلحين على مذهبين: المذهب الأول يرى بأن مصطلح "فقه اللغة" يرادف "علم اللغة".

المذهب الثاني يرى أن "علم اللغة" أعم من فقه اللغة، بمعنى أن "علم اللغة" يشمل "فقه اللغة" وزيادة.

**الدليل على القول الأول:** مباحث العلمين متداخلة عند علماء المشرق والمغرب قديماً وحديثاً، نجد مثلاً: مؤلف في "علم اللغة"، ومؤلف آخر في "فقه اللغة"، والمباحث فيهما نفسها وهي: البحث عن اللغة الإنسانية الأولى والبحث في الفصائل اللغوية، والبحث في الاشتقاق، في التضاد، في الترادف، في النحت... وما إلى ذلك، فصائل اللغات هنا وفصائل اللغات هناك، اللغة العربية في "فقه اللغة"، واللغة العربية في "علم اللغة"، ومميزات اللغة العربية في "علم اللغة"، ومميزات اللغة العربية في "فقه اللغة". فالمباحث متداخلة في كلا العلمين، ولذلك قالوا إنهما علم واحد.

**الدليل على القول الثاني:** أن العلماء القدامى لم يكن عندهم المقارنة بين اللغات مثل الدراسة الحديثة - الفصائل اللغوية وما إلى ذلك - فيقولون بأن "علم اللغة" أعم من "فقه اللغة"، لأن مباحث "فقه اللغة" ما هي إلا جزء من مباحث أعم وأشمل هي مباحث "علم اللغة". والراجح: أن "علم اللغة" يرادف نظيره "فقه اللغة"؛ لأن المباحث متداخلة عند علماء المشرق والمغرب قديماً وحديثاً ولكن الفرق بينهما في الهدف والغرض.

إن من يتأمل نظرة الدارسين إلى فقه اللغة وعلم اللغة<sup>21</sup> يجد التداخل والخلط بينهما واضحاً، ولكن ومهما يكن من أمر فإن الدراسات اللغوية الحديثة تميل إلى التفريق بين هذين المصطلحين على أساس أن:

\* **منهج (فقه اللغة):** يدرس اللغة بوصفها وسيلة لدراسة الحضارة والآداب بينما **(علم اللغة)** يدرس اللغة لذاتها.

\* **ميدان (فقه اللغة)** أوسع وأشمل لأن الغاية النهائية منه دراسة الحضارة والآداب والبحث عن الحياة العقلية من

جميع وجوهها أما ميدان **(علم اللغة)** فيعنى بوصف اللغة.

\* إن مصطلح **(فقه اللغة)** سابق من الناحية الزمانية لمصطلح **(علم اللغة)**.

<sup>20</sup> - ينظر، فقه اللغة - مفهومه.... محمد بن إبراهيم الحمد ص 19.

<sup>21</sup> - ينظر تفصيل الفرق بين المصطلحين، نظرات في اللغة محمد مصطفى رضوان ص 33 وما بعدها، وفقه اللغة وخصائصها، إميل بديع يعقوب

\* اتصف علم اللغة منذ نشأته بكونه علماً ولم يحاول أحد أن يصف فقه اللغة كونه علماً.

\* **هدف (فقه اللغة)** <sup>22</sup>: الغرض من دراسة هذه الجوانب في "فقه اللغة" هو دراسة اللغة كوسيلة لدراسة الثقافة والأدب وخدمة للقرآن الكريم؛ لأن الدراسات اللغوية لم تقم عند العرب إلا لخدمة للقرآن الكريم، وكذلك دراسة النحو لم تقم إلا لخدمة للقرآن الكريم، ودراسة البلاغة لم تقم إلا لخدمة للقرآن الكريم، .....  
و**هدف (علم اللغة)** : هو دراسة اللغة من جميع جوانبها -الجانب الصوتي والجانب الصرفي والجانب النحوي والجانب الدلالي- وتكون دراسة اللغة هذه (لذاتها ومن أجلها) يعني بقطع النظر عن أي عامل خارجي؛ لتتوصل إلى أحكام هذه الأحكام تصدق على اللغة، يعني أحكام تندرج تحتها الظواهر اللغوية وتطبق عليها، بقطع النظر عن هذه الظاهرة ما استنبطناه أو ما استخلصناه من القرآن الكريم، أو من الحديث النبوي الشريف، أو من القراءات القرآنية.

**وخلاصة القول في الفرق بين المصطلحين** : أن "علم اللغة" يقطع صلته بالقرآن الكريم، وبالقرآنية، والحديث الشريف، فهو يدرس اللغة في ذاتها ومن أجلها، بينما يدرس فقه اللغة "اللغة" بقصد التوصل إلى أحكام وقواعد مستنبطة في الأساس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب شعره ونثره.

#### **(د)- الفرق بين المصطلحين عند فقهاء العربية المحدثين:**

قبل النظر في موقف المحدثين من المصطلحين لا بد أن نقرر أولاً أنه: و من تتبع آراء وأقوال علماء العربية القدماء يلاحظ أنهم لم يكونوا يفرقون بين هذين المصطلحين، والدليل على ذلك ثلاثة أمور :  
**أولها:** أن كتاب أحمد بن فارس "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" وهو أول كتاب وصل إلينا يحمل عنوانه مصطلح " فقه اللغة " لم يعلل لنا سبب تسمية الكتاب، وقد عنوانه بـ ( الصاحبي ) نسبة إلى صاحب بن عبّاد الذي أهداه إليه .

**ثانيها:** أنّ كتاب أبي منصور الثعالبي: ( فقه اللغة وسر العربية ) وهو الكتاب الثاني الذي وصلنا حاملاً في عنوانه مصطلح ( فقه اللغة ) ليس إلا معجماً لألفاظ عربية، اختارها الثعالبي ورتبها حسب المعنى الذي تشترك فيه .  
**ثالثها :** أنّ كتاب ابن جني ( الخصائص ) وهو أقرب الكتب القديمة إلى كتب ( فقه اللغة ) التي نعرفها اليوم، لم يعنونه صاحبه باسم (فقه اللغة)، وإنما اختار له عنوان: (الخصائص) مشيراً في ذلك إلى (القوانين) التي تنتظم العربية .

وهذا الاتجاه نحو التسوية بين ( فقه اللغة ) و( علم اللغة) ظل مستمراً عند بعض الباحثين المحدثين.

22- ينظر، نظرات في اللغة، محمد مصطفى رضوان ص 18، وفقه اللغة وخصائصها، إميل بديع يعقوب، ص 33-34

يقول علي عبدالواحد وافي: " أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة أشهرها ( فقه اللغة ) ... وقد كتبوا نود أن نسمي كتابنا هذا ( أي كتابه : علم اللغة ) باسم فقه اللغة لولا أن هذا الاسم قد خصص مدلوله في الاستعمال المؤلف ، فأصبح لا يفهم منه إلا البحوث المتعلقة بفقه اللغة العربية وحدها"<sup>23</sup>.

ويقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه : ( دراسات في فقه اللغة ) : "من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة ... وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من ضروب الدراسة اللغوية من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما وجدناهما تافهة لا وزن لها ..."<sup>24</sup>

ولكن إن كان علي عبد الواحد وافي ، وصبحي الصالح وغيرهما يسوون بين المصطلحين فإن ثمة باحثين آخرين محدثين ميّزوا بينهما ، ومنهم على سبيل الذكر :

الدكتور كمال بشر الذي يذهب إلى أن ( فقه اللغة ) كان يعني في القديم نوعين رئيسيين من الأبحاث اللغوية ، ويشمل:

أولهما: البحث في المعجمات وما إليها ، بالإضافة إلى مشكلات المفردات من حيث معانيها وأصالتها وسماتها وترادفها وتحتها واشتقاقها وصورها المجازية والحقيقية .

ويتضمن الثاني الدراسات العامة التي تعدّ مقدمة للعلوم أو ممهدة لها : كالكلام على اللهجات ووظيفة اللغة وأصلها ومصادرها وفكرة القياس والتعليل . ثم يقول : " أما في الحديث فلم يزل فقه اللغة يعني البحث في هذه القضايا وأضربها ، غير أن بعض الدارسين يخلطون بينه وبين علم اللغة بالمفهوم الجديد ، فيطلقونهما في مناقشاتهما كما لو كانا مترادفين ، وهو خلط واضح . ففقه اللغة بمفهومه القديم أو الحديث لا يعدو أن يكون حلقة من حلقات الدرس في علم اللغة ، وبهذا يمكن الاستغناء عنه والاكتفاء بهذا المصطلح العام علم اللغة "<sup>25</sup> .

وكذلك يخلص عبده الراجحي من فصله الأول من كتابه ( فقه اللغة في الكتب العربية ) إلى القول : " وغني عن البيان الآن أن هناك فرقاً واضحاً بين موضوعي العلمين ومنهجيهما في درس اللغة ، وهذا التفريق ينبغي أن يكون واضحاً عند بحث المنهج اللغوي عند العرب " <sup>26</sup>.

<sup>23</sup>-علم اللغة، علي عبد الواحد وافي،ص 15-16

<sup>24</sup>-دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح ص 19

<sup>25</sup>-دراسات في علم اللغة، كمال بشر ص 48-49

<sup>26</sup>-فقه اللغة في الكتب العربية، عبده الراجحي ص 29

**2- الفيلولوجي: (philology)** وهي كلمة مركبة من لفظين اغريقيين هما: (**philos**) بمعنى (الصديق) ، و (**logos**) بمعنى الكلام ، أي أن فقه اللغة يقوم على حب الكلام للتعلم في دراسته من حيث قواعده وأصوله وتاريخه.

وتبين الدراسة التاريخية<sup>27</sup> -فيما بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين- أن هذا المصطلح لم يكن واضحاً متميزاً ، حيث استعملت مصطلحات أخرى من قبل وشملت بحثاً لغوية مختلفة مثل دراسة النحو والصرف و النصوص القديمة. ويعتقد بعضهم أنه يشمل بحوث علم اللغة بالإضافة إلى جميع الفنون اللغوية و الأدبية و تاريخ العلوم بشكل عام .

و حين طلع فجر النهضة على أوروبا لم تكن الدعائم التي قامت عليها هذه النهضة إلا ما تركته الحضارتان الأوربيتان السابقتان: حضارة الإغريق ، و حضارة الرومان ، وكان الأوربيون في ذلك الوقت يرون أنفسهم الورثة الشرعيين لتراث هاتين الحضارتين ، وكان تراث اليونان يتمثل في فلسفتهم وفي دراساتهم اللغوية التي كان أشهرها ما تركته مدرسة الإسكندرية ، كما كان تراث الرومان يتمثل في القانون والإدارة ، وفي الدراسات اللغوية المكتوبة باللاتينية التي ما فتئت حتى ذلك الوقت (عصر النهضة) لغة الدين والثقافة والحضارة في أوروبا ، وما دامت هاتان اللغتان بهذه الأهمية فلا جرم أن الهمم انصرفت على إحياء دراستهما ، ونقد ما جاء بهما من نصوص قديمة نقدا لغويًا في طابعه ، وأصبحت هذه الدراسات الشارحة والناقدة للنصوص القديمة باللغتين المذكورتين تعرف باسم "الفيلولوجيا". وبهذا المعنى أصبح لفظ "فيلولوجيا" يعني "دراسة النصوص القديمة" من حيث القاعدة ومعاني المفردات وما يتصل بذلك من شروح ونقد وإشارات تاريخية وجغرافية..... إلخ. وكان عنصر "القدم" من أهم العناصر التي يتكون منها معنى الفيلولوجيا ، ثم توسع اللغويون في مدلول "الفيلولوجيا" دون أن يجردوه من ارتباطه باللغات والدراسات القديمة ، فأطلقوا هذا المصطلح على نوعين من أنواع النشاط والتحقيق العلمي هما :

( أ ) - فك رموز الكتابات القديمة التي يعثر عليها الباحثون في حقل الآثار مرقومة على الحجارة أو جدران المباني في صورة نصوص بلغات مجهولة أو لغات معلومة ولكن الرموز مجهولة .

( ب ) - وأطلق اللفظ كذلك على تحقيق الوثائق والمخطوطات القديمة بغية نشرها والانتفاع بها في النشاط العلمي ، وفي الدراسات التاريخية والأثرية.

<sup>27</sup>-علم اللغة ،علي عبد الواحد وافي،ص 14

الخلاصة: ونخلص في الأخير إلى القول بأن مصطلح الفيلولوجيا مصطلح نشأ في بيئة غربية خالصة وارتبط بتراث الأجداد وثقافتهم وتعلق بصوصهم ولغتهم، وهو مصطلح مختلف كل الاختلاف عن فقه اللغة العربية الذي ارتبط بتراث أمة العرب وبدراسة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم.

## الدرس الثاني: نظريات نشأة اللُّغة الإنسانيَّة الأولى

### تمهيد:

يعد البحث في نشأة اللُّغة الإنسانيَّة الأولى من أكثر المباحث التي حظيت بقدر غير قليل من التأمل والتفكير، ولم ينته الباحثون على اختلاف العصور إلى نتائج يقينية مطمئنة حصل حولها إجماع واتفاق، وهذا لارتباط النتائج المتوصل إليها بالفرضيات والتخمينات.

ذلك أنه ومنذ الحضارة الإنسانيَّة القديمة والعلماء لا ينقطعون عن البحث في أصل الكلام ونشأته، يقدمون الافتراضات وقيمون التجارب إلى غاية أوائل القرن العشرين، حيث تقرر عندهم أن قضية البحث في أصل اللُّغة الإنسانيَّة الأولى من مسائل الميتافيزيقا (ماوراء الطبيعة)، وأنه لا جدوى من الاستمرار في البحث فيها. وقد سلك فلاسفة اليونان قديماً، والمتكلمون، وعلماء الأصول في القرن الرابع الهجري من العرب، المسلك نفسه وفي العصر الحديث تناول البحث فيه كثير من الفلاسفة واللغويين الأوربيين.<sup>28</sup>

وفيما يأتي عرض لأهم النظريات التي قال بها علماء العرب والمسلمون والتي تناولت نشأة اللُّغة الإنسانيَّة الأولى، والكلام عن أصلها، وما وُجه لهذه التَّطريات من تفسيرٍ وتعليلٍ، واعتراضٍ وردٍّ، ويمكن أن نُحصر أبرز هذه التَّطريات فيما يأتي:

### 1- نظرية التَّوقيف الإلهي وتسمى (الوحي والإلهام):

يذهب أصحاب هذه التَّظرية إلى أنَّ اللُّغة وحي من عند الله تعالى لأبي البشر آدم - عليه السَّلام - ومعنى التَّوقيف: أنَّ الله تعالى وقَّف وأهم ولقَّن وعلم كل ما يتعلق باللُّغة كتقطيع الأصوات وتكوين الكلمات ووضعها بإزاء الكلمات الدالة عليها.<sup>29</sup> وأمَّا القدر الذي علمه الله تعالى لآدم من هذه اللُّغة فقد اختلف القائلون فيه إلى فرق ثلاثة:

- الفريق الأوَّل: يرى أنَّ الله تعالى علم آدم الأسماء كلها التي يتعارفها الناس، من دابة وأرض وسهل وجبل

وجمل... وأشباه ذلك من الأمم وغيرها وهذا قول عبد الله ابن عباس - رضي الله عنه.<sup>30</sup>

- الفريق الثَّاني: يرى أنَّ الله تعالى علم آدم أسماء الملائكة، وقيل أيضاً علمه أسماء ذريته أجمعين.<sup>31</sup>

28- ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص13 و15، وعلم اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص97.

29- في فقه اللُّغة العربيَّة، ناجح عبدالحافظ مبروك، ص34.

30- المزهري في علوم اللُّغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، ج1، ص08.

31- الصاحبي في فقه اللُّغة، أحمد بن فارس، تح: السيد صقر، ص36. وينظر أيضاً: المزهري في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ج1، ص30.

- الفريق الثالث: يرى أنّ الله سبحانه وتعالى علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغيرها من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها جميعاً، ثمّ أنّهم بعد ذلك تفرقوا في الأرض وتمسك كل واحد منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه وسادت دون غيرها وبالمقابل اضمحلت وضعفت غيرها بعد عهدهم بما.32

#### أ- القائلون بهذه النظرية:

إن توقيفية اللغة الإنسانية الأولى قال به من فلاسفة الإغريق القدماء "هيراقليطس" heraclite (576-480 ق.م)، كما نُسب هذا الرأي إلى "أفلاطون" plato (427-347 ق.م) وذهب إليه أبو الحسن أحمد بن فارس القزويني (ت: 395هـ)، وأبو علي الفارسي (ت: 377هـ)، وأبو الحسن الأحنف في أحد قوليه (ت: 211هـ) وأبو الحسن الأشعري (ت: 321هـ)، وكلهم من أعلام القرن الرابع الهجري. ومن القائلين بها في العصور الحديثة الأب لامي lami (1636م-1711م)، والفيلسوف الفرنسي دويونالد De Bonalde (1754-1840). ويستند أصحاب هذه النظرية إلى الأدلة النقلية مما جاء في القرآن الكريم، وفي التوراة وأخرى عقلية تؤكد توقيفية اللغة الإنسانية.

ب- الأدلة التي استند إليها التوقيفيون: استند أصحاب نظرية الوقف الإلهي إلى مجموعة من الأدلة ومنها:

#### أولاً: الأدلة النقلية، وهي :

\* القرآن الكريم<sup>33</sup>: حيث أشارت بعض الآيات القرآنية إلى أنّ اللغة هي من عند الله تعالى في نحو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31] وقوله تعالى ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ...﴾ [النجم: 23]، وهذا في سياق ذم قوم أطلقوا أسماء غير توقيفية، وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22]

\* التوراة: جاء في التوراة ما يشير إلى أنّ اللغة هي من عند الله تعالى في نحو: " وقال الربّ الإله لا يحسن أن يكون الإنسان وحده فأصنع له عوناً بإزائه، وجعل الربّ الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء

32-الخصائص، بن جني (أبو عثمان)، تح: محمد علي النجار، ج1، ص 41، وينظر أيضاً: المزهري في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ج1،

ص11.

33- فسر التعليم في الآية بمعنى الإلهام والتلقين، وبمعنى الإقذار أي أعطاه القدرة.

فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذا نفس حية، فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم، وطيور السمّاء، وجميع حيوانات البرية.<sup>34</sup>

ثانياً: الأدلة العقلية: ومنها:

أولاً: إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة العرب فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم، ولو كانت اللّغة مواضعة، ولم يكن أولئك في الاحتجاج بهم أولى من الاحتجاج بنا لو اصطلاحنا على لغة اليوم.<sup>35</sup> ثانياً: لو أن اللّغة توافقت واصطلاح بين الناس لكان من الضروري في التخاطب بوضعها إلى لغة أو كتابة يعود إليها الكلام.<sup>36</sup>

### ج- موقف علم اللّغة الحديث من نظرية الوقف الإلهي:

يرى علم اللّغة الحديث أنّ الأدلة التي استند إليها التوفيقيون نقلية كانت أم عقلية ليست كافية ولا مقنعة في تفسير نشأة اللّغة الإنسانيّة الأولى ومن ذلك:

1- أنّها لم توضح لنا الصورة الأولى التي ظهرت بها هذه اللّغة، يعني أصواتها الأولى، وكيف وضعت أصوات معينة لمسميات خاصة كما أنّها لم توضح لنا كيف اهتدى آدم -عليه السّلام- لتركيب أصوات ذات مقاطع متميزة في صورة كلمات، والعوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره مما يعد أساس البحث العلمي في تفسير نشأة اللّغة.<sup>37</sup>

2- استناد أصحاب هذه النّظرية إلى قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾ [البقرة: 31]، فسر التعليم فيها بمعنيين، الأول: بمعنى الإلهام والتلقين، والثاني: بمعنى الإقدار، وهو تأويل ابن جني في توجيه دلالة اللفظ،<sup>38</sup> وهذه الثنائية الدلالية في التفسير تضعف الدليل النقلية؛ لأنّ الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل الاستدلال به. 3- ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...﴾ [النجم: 23]، أنه ليس مناط الاستشهاد بهذه الآية الكريمة كونهم ابتدعوا أسماء ثم

34- ينظر: سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآيات 19-20.

35- ينظر: الصاحبي في فقه اللّغة، أحمد بن فارس، ص37، والمزهر في علوم اللّغة، جلال الدين السيوطي، ج1، ص09، ودلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص16.

36- ينظر: المزهر في علوم اللّغة، ج1، جلال الدين السيوطي، ص18.

37- علم اللّغة، علي عبد الواحد وافي، ص96-98.

38- ينظر: الخصائص، ابن جني، ج1، ص41، والمزهر في علوم اللّغة، جلال الدين السيوطي، ج1، ص11.

أطلقوها على أصنام، وإنما مناط الاستشهاد هو كونهم اعتقدوا في هذه الأصنام واتخذوها آلهة تعبد من دون الله، وعلى ذلك فالآية لا تقدم دليلاً على توقيفية اللغة.<sup>39</sup>

(4) - ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاخْتَلَفَ اللّٰسِنٰتِكُمْ وَاللّٰوْنِكُمْ ... ۲۲﴾ [الروم:22]، أنَّ " اللسان " هي الجارحة المخصوص، ليس مرادًا ولا مقصودًا في الآية باتفاق، وكون المراد بالألسنة اللغات مجازًا يعارضه مجازات أخرى نحو مخارج الحروف، والقدرة على النطق بها ومن ثمة فلا يثبت الترجيح.<sup>40</sup>

(5) - إن اتخاذ الاحتجاج بلغة القوم الذي قال به أصحاب نظرية الوقف لا يقوم دليله على أصل اللغة ونشأتها بقدر ما هو دليل على توحد لغات قبائل العرب في لغة واحدة حيث صارت هي لغة الأدب ولغة الشعر والكتابة، وهي لغة قريش.<sup>41</sup>

(6) - إن فكرة الاصطلاح لا يستدعي بالضرورة تقدم اصطلاح آخر دليل تعليم الوالدين الطفل دون سابقة اصطلاح،<sup>42</sup> حيث يتدرج الطفل في تعلم لغة قومه حتى يتقنها فيؤديها من تلقاء نفسهدون الحاجة إلى اصطلاح سابق، كما نجد الأطرش يتفاهم مع أفراد بيئته دون وجود اصطلاح بينهم.<sup>43</sup>

خلاصة القول: فقد لقيت نظرية الوقف الإلهي اعتراضا واضحا حول أدلتها النَّقْلِيَّة والعقْلِيَّة على حد سواء بما يجعلها لا تنسجم مع الأسباب التي يقوم عليها التَّفكير العلمي، غير أننا كمسلمين نتعاطى مع النقل والقرآن الكريم بالعقل كما نتعاطى معه بالقلب، فليس كل ما يليقه العلم الحديث والعقل الإنساني مسلم به، ذلك أن العقل السليم والصحيح لا يتعارض مع النصوص النَّقْلِيَّة القرآنيَّة.

## 2- نظرية التّواضع والاصطلاح:

يذهب أصحاب هذه النَّظْريَّة إلى أن نشأة اللُّغة ابتدعت بالتواضع والاتفاق، يقول ابن جني (ت: 392هـ): "غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللُّغة إنّما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف"،<sup>44</sup> ويفسر ابن جني حدوث هذه المواضع: " كأن يجمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعون لكل واحد منها سمة ولفظا إذا ذكر عُرف به مسماه ليمتاز عن غيره، وليغني بذكره عن

39- فقه اللغة وخصائص العربية وطرائق نموها، صلاح راوي، ص 51-52.

40- المزهري في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ج 1، ص 19.

41- فقه اللغة وخصائص العربية، صلاح راوي، ص 53.

42- المزهري في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ج 1، ص 19.

43- في فقه اللغة، ناجح عبد الحافظ مبروك، ص 43.

44- الخصائص، ابن جني، ج 1، ص 40.

إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض في إبانة حاله... فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم فأومأوا إليه وقالوا إنسان إنسان إنسان، فأبي وقت سمع فيه هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده، أشاروا إلى ذلك فقالوا: يد، عين، رأس، قدم أو نحو ذلك، فمتى سمعت اللفظة من هذا عرفت معناها، وهلم جرا فيما سوى ذلك من الأسماء والأفعال والحروف، ثم لك -من بعد ذلك- أن تنقل هذه المواضع إلى غيرها، فتقول الذي اسمه (إنسان) فليجعل مكانه (مَرْدٌ) والذي اسمه (رأس) فليجعل مكانه (سَرٌّ)، وعلى هذا بقية الكلام"<sup>45</sup> ومعنى هذا أن نشأة اللُّغة من وضع الإنسان.

#### أ-القائلون بهذه النَّظَريَّة:

قال بهذه النَّظَريَّة كثير من الفلاسفة وعلماء اللُّغة، فمن الفلاسفة اليونانية في القرن الخامس قبل الميلاد (ق.م) الفيلسوف (ديموكريت) (Dimacri)، وفي العصر الحديث آدم سميت (Adam Smith)، وريد (Reid)، و(دوجالديستيوارت) (Dugalstemart)، أما الفلاسفة واللُّغويون العرب فمعظمهم من المعتزلة أنصار العقل ومنهم: أبو هاشم الجبائي، وأبو الحسن الأخفش، وأبو علي الفارسي، وتلميذه أبو الفتح بن جني<sup>46</sup>.

#### ب-أدلة أصحاب نظرية التواضع والاصطلاح:

أقام أنصار هذه النَّظَريَّة أدلتهم على أنقاض نظرية الوقف الإلهي حيث تتبعوا ما استدل به التوقيفيون وعارضوه واحدا واحدا مؤيدين في الوقت نفسه مذهبهم بأدلة على النحو الآتي:

(1) - لا يجوز - قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم:4]، وهذا يقتضي تقدم اللغة على البعثة<sup>47</sup>.

(2) - لا يجوز وصف الله تعالى بأنه يواضع أحدا على شيء، فقد ثبت أن المواضع لا بد معها من إيماء أو إشارة بالجراحة نحو الموماً إليه، والمشار نحوه، والله تعالى منزه عن الجوارح، فلا يصلح إذن الإيماء والإشارة منه بها، فبطل أن تصح المواضع على اللغة منه، تقدست أسماؤه<sup>48</sup> وعليه فإن القول بأن اللغة هي من عند الله تعالى قول مردود.

45- المصدر نفسه، ج1، ص44-45، وينظر أيضا: المظهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ج1، ص12.

46- ينظر: علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص68، وفي فقه اللغة، ناجح عبد الحافظ مبروك، ص49.

47- المظهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ج1، ص18.

48- المصدر نفسه، ج1، ص13.

## ج - موقف علم اللغة الحديث من نظرية التواضع والاصطلاح:

يرى علم اللغة الحديث أن أدلة أصحاب نظرية التواضع والاصطلاح على الرغم من اعتمادها على العقل، وتأويل النصوص فإنها لم تتمكن من تقديم إجابات مقنعة على صحتها، كما أنها لم توفق في دحض ما انتهت إليه نظرية التوقيف الإلهي ومن جملة الاعتراضات الموجهة لهذه النظرية نذكر ما يأتي:

1- القول بتوقيف اللغة لا يتوقف على البعثة لجواز أن يخلق الله تعالى العلم الضروري في بني الإنسان بأن الألفاظ وضعت لتدل على كذا وكذا أو أن الله سبحانه وتعالى يتخذ أول نبي يوحى إليه باللغة فيتعلمها قومه، ثم يُرسل إليهم، يقول أحمد بن فارس: " وقف الله سبحانه آدم - عليه السلام - على ما شاء الله أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء الله، ثم علم بعد آدم من الأنبياء - صلوات الله عليهم - نبيا نبيا ما شاء الله أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فأتاه الله من ذلك ما لم يؤته أحدا من قبله تماما على ما أحسنه من اللغة، ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت".<sup>49</sup>

2- ليست كل الأمور تعتمد فيها المواضع على الإيماء والإشارة إذ هناك من الأشياء مالا يمكن إحضاره حتى يمكن الإيماء أو الإشارة إليه، كالمعاني وغالبية الأفعال والحروف، فكيف تمّ التواضع عليها إذن؟<sup>50</sup> تبين مما تقدم أنّ التواضع والاصطلاح في القول بنشأة اللغة الإنسانية الأولى ليس بشيء، فالتواضع هو الآخر يحتاج إلى اصطلاح خاص لقيامه (التواضع).

## 3- نظرية محاكاة أصوات الطبيعة:

ويطلق عليها أيضا اسم (Bow.wow)، ويرى أصحاب هذه النظرية أنّ النشأة الأولى للغة هي تقليد لأصوات الطبيعة التي يسمعها الإنسان الأول، واتخذ منها أسماء مصادر هذه الأصوات كعواء الذئب، وزئير الأسد، ومواء القط، وحفيف الشجر، وقصد الرعد، وخرير الماء وغيرها.<sup>51</sup> وهذه الكلمات كانت قليلة التنوع محدودة الاستعمال، قريبة الشبه بأصوات الطبيعة التي أخذت عنها، قاصرة عن الدلالة على المقصود ثم تطورت وارتقت بارتقاء تفكير الإنسان وتقدم الحضارة، واتساع حاجات الإنسان ومظاهر حياته وتطورها، ونضج أعضاء النطق عنده.

## أ- القائلون بهذه النظرية:

49- الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، ص37.

50- ينظر التفصيل فيها: المزهري في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي ج1، ص14

51- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص20-21.

من أبرز أصحاب هذه النظرية المستشرق وِثْنِي (Whytney) ، وآدم سميث (Adam Smith)، وستيوارت (Stywart)، سبنسر (Spenser)، ومن العرب ابن جني.<sup>52</sup>

#### ب- أدلة أصحاب نظرية محاكاة أصوات الطبيعة:

تعد هذه النظرية أقرب النظريات صحة في تفسير نشأة اللغة الإنسانية الأولى، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء التي تخضع لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية، ومن أهم أدلتها:<sup>53</sup>

(1)- أن المراحل التي تقررهما بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل، فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية.

(2)- ما تقرره هذه النظرية بصدد خصائص اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى يتفق مع مانعته من خصائص اللغات في الأمم البدائية، حيث تكثر في لغاتها المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه.

#### ج- النقد الموجه لهذه النظرية:

لم تتمكن هذه النظرية من تفسير كيف استُغِلَّ مبدأ (حكاية الصوت) في آلاف الكلمات التي ترى الآن أنه علاقة بين معناها وصوتها، فمثلاً: لفظ (شجرة) ومعناها ولفظ (كتاب) ومعناه، ... فلا وجود لعلاقة ظاهرة، إنما العلاقة ببيكولوجية أي من نوع قرن الأصوات بصورة قائمة في العقل.

#### 4- نظرية الغريزة الكلامية (Ding Dong):

تعد إحدى النظريات الحديثة التي ترجع نشأة اللغة الإنسانية الأولى إلى غريزة زُود بها الإنسان، وكانت تحمله على التعبير عن كل المدركات الحسية والمعنوية بكلمة خاصة؛ ولهذا التحدت المفردات والكلمات عند الإنسان الأول، حيث نشأت اللغة لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة فانقرضت وزالت وحل محلها الكلام الصناعي.<sup>54</sup>

أ- القائلون بهذه النظرية: من أبرز القائلين بهذه النظرية، الفرنسي رونييه رينان (Rinan) (ت: 1890م)، وماكس موللر (Max Maller) (ت: 1900م). وقد اعتمد ماكس موللر على أدلة انتهى إليها من البحث في أصول كلمات اللغات الهندية الأوروبية حيث أرجع مفردات هذه اللغات إلى خمسمائة أصل (500) مشترك، وهذه الأصول هي بمثابة اللغة الأولى التي تشعبت منها هذه الفصيحة. ويرى ماكس موللر أنه بعد تحليل هذه الأصول وجد أنها تدل على معانٍ كلية، ولا يوجد تشابه - مطلقاً - بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة.

52- فقه اللغة وخصائص العربية، صلاح راوي، ص62.

53- علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص105-106.

54- في فقه اللغة، كاظم صالح مبروك، ص61.

## ب-النقد الموجه للنظرية:

لم تسلم هذه النظرية من النقد فقد لقيت بعض الاعتراض من الدارسين المحدثين، وفي مقدمة المعترضين الاستاذ علي عبد الواحد وافي، حيث تبين له بعد عرضها أنّها لا تحل شيئاً من المشكلة التي نحن بصدد حلها مشكلة البحث عن العوامل التي دعت إلى ظهور اللُّغة في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات، والكشف عن الصورة الأولى التي ظهرت بها هذه اللُّغة، بل تكتفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً وهي مشكلة الغريزة الكلامية.<sup>55</sup>

كما يرى علي عبد الواحد وافي أن " أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أنّ الأصول الخمسمائة السابق ذكرها تمثل اللُّغة الإنسانية الأولى، فهذه الأصول كما تقدم تدل على معانٍ كلية، ومن الواضح أن إدراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الإنسانية الأولى ".<sup>56</sup>

## الخلاصة:

وخلاصة القول فإن هذه النظريات وغيرها من النظريات التي سعت لتفسير نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم ترق بهذا التفسير إلى درجة اليقين العلمي فهي مجرد أفكار ومحاولات يستأنس بها الدارسون، وتبقى نظرية الوقف الإلهي التي استند أصحابها إلى النقل من القرآن الكريم النظرية التي يمكن التسليم بها -نحن كمسلمين- حتى ولو رفضها العقل الحديث، والعلم المعاصر فالله تعالى زود الإنسان منذ خلقه بالقدرة على إنتاج الكلام فالقدرة كانت ولا تزال إلى يومنا هذا لم تتوقف. كما يمكن القول إن مفهوم التواصل والاصطلاح يمكن أن يتحقق في واقع الإنسان كما تدل عليه الهيئات العلمية ومجامع اللغة حين يقتضي الأمر وضع المصطلحات للمسميات الحديثة.

55- علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص102

56- المرجع نفسه، ص102.

## الدرس الثالث:

## اللغة العربية واللغات السامية

### – اللغة العربية ولهجاتها –

## أولاً: اللغة العربية واللغات السامية:

### تمهيد:

إن الناظر إلى لغات الشعوب في العالم يجدها كثيرة العدد، ويختلف بعضها عن بعض أشد الاختلاف من ناحية أخرى، ويقترب بعضها الآخر من بعض من ناحية ثانية. وقد قسم الباحثون هذه اللغات بغية تسهيل دراستها إلى مجموعات تتشابه عناصر كل مجموعة في اللفظ والتركيب وطرائق التعبير، ولكن هذه المجموعات تختلف باختلاف المعيار الذي بواسطته صنّف الباحثون لغات العالم. فبعضهم قسم هذه اللغات مستنداً إلى ما جاء في التوراة من أنّ الطوفان عندما اجتاح سكان الأرض لم ينج منه سوى نوح وأولاده الثلاثة: سام وحام ويافت، وما حمل معه في سفينته من كل زوجين<sup>57</sup>، وعن أولاد نوح الثلاثة تفرعت هذه الشعوب إلى سامية وحامية ويافتية (آرية).

ونظر بعض الباحثين الآخرين إلى موضوع تصنيف اللغات البشرية نظرة طبيعية،<sup>58</sup> فقسم الأجناس البشرية على أساس اللون والتركيب الجسمي، وأخذ فريق ثالث معيار التطور والارتقاء أساساً للتقسيم فقسم اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل تختلف عناصر كل منها عما عداها في درجة رقيها وهي اللغات غير المتصرفة أو العازلة، واللغات اللصيقة أو الوصلية، واللغات المتصرفة أو التحليلية.<sup>59</sup> وأياً ما كان أساس التقسيم فإنّه من المتعارف عليه

57- ينظر تاريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفنسون، ص20.

58- المرجع نفسه، ص20.

59- علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص195-196.

هو وجود جنس بشري متحدداً في النشأة والمكان واللون تجتمع شعوبه خواص مشتركة، ويعرف باسم ( الجنس السامي).

## 1- الموطن الأصلي للغات السامية:

يطلق اسم اللغات السامية على مجموعة اللغات التي كانت شائعة منذ أزمان بعيدة في آسيا وأفريقيا، وبعضها حي لا يزال يتكلم به ملايين البشر، ويحمل كنوزاً من الثقافة والأدب، وبعضها الآخر عفت آثاره بذهاب الأيام.<sup>60</sup>

ويبدو أن أول من أطلق اسم (اللغات السامية) هو المستشرق الألماني (شولتز) Scholzer (ت: 1781 م) مستندا إلى التقسيم الخاص بالتوراة.<sup>61</sup>

ويتفق الباحثون على أنَّ للأُم السامية وطناً أصلياً واحداً لكنهم اختلفوا اختلافاً شديداً في تعيين هذا الوطن الأصلي، وذهبوا فيه مذاهب شتى، ولم يصلوا بشأنه إلى رأي يقيني ويرجع أهم ما قيل بشأنه إلى أقوال ستة وهي:<sup>62</sup> أ- يذهب بعضهم إلى أنَّ الساميين نشأوا ببلاد الحبشة، ومنها نزحوا إلى القسم الجنوبي ببلاد العرب عن طريق باب المندب، ومن هذا القسم انتشروا في مختلف أنحاء الجزيرة العربية.

ب- وبعضهم يذهب إلى أنَّ الموطن الأوَّل للساميين كان شمال أفريقيا ومنه نزحوا إلى آسيا عن طريق برزخ السويس.

ج- وبعضهم يذهب إلى أنَّ المهدي الأوَّل للساميين كان بلاد أرمينيا بالقرب من حدود كردستان، وفريق من هؤلاء يرى أنَّ هذا الوطن كان المهدي الأوَّل للشعبين السامي والآري معاً.

وهذه الآراء الثلاثة هي أضعف ما قيل بهذا الصدد بحيث لم يكد أحد من أصحابها تقديم بين يدي مذهبه دليلاً يعتد به.

د- ويرى الأستاذ والمستشرق جويدي (Guidi) ومن تابعه أنَّ المهدي الأصلي للأُم السامية كان جنوب العراق، ويستدل على رأيه ببعض كلمات مشتركة في جميع اللغات تتعلق بالعمران والحيوان والنبات فقد ظهر له من طبيعة هذه الكلمات وأصواتها ومدلولاتها، ومن شواهد أخرى كثيرة أنَّها نشأت بجنوب العراق، ويتخذ من اشتراكها في جميع اللغات السامية دليلاً على أنَّ هذه المنطقة كانت المهدي الأوَّل للساميين.<sup>63</sup>

60- تاريخ اللغات السامية، إسرائيل ولفنسون، ص 02.

61- التوراة، سفر التكوين، الإصحاح العاشر.

62- فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص 09 وما بعدها، وينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، صلاح روي، ص 86 وما بعدها.

63- فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص 09.

هـ - ويرى بعضهم أنَّ الموطن الأصلي للسَّاميين كان بلاد كنعان، ويستدل على ذلك بأنَّ السَّاميين كانوا منتشرين في البلاد السُّورية القديمة في أزمنة سحيقة في القدم، وأنَّ مدينتهم في هذه البلاد لا تعرف قبلها مدينة أخرى، على حين أنَّ العراق مثلاً التي يرى أصحاب المذهب الرابع أنَّها المهدي الأول للسَّاميين كان يسكنها من قبلهم السَّعب السُّومري، وكانت له فيها مدينة زاهرة قبل مدينتهم، وقد نزحوا إليها في عصر كانت فيه بلاد سوريا القديمة أهلة بأمام سامية ذات مدينة عريقة.

و- ويرجع بعضهم أنَّ المهدي الأوَّل للسَّاميين كان القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز ونجد واليمن وما إلى ذلك)، وقد مال إلى هذا الرأي عدد كبير من قدامى المستشرقين ومحدثيهم، وعلى رأسهم: (رينان الفرنسي) و(بروكلمان الألماني)، وهذا هو أصح الآراء وأقواها سنناً وأكثرها اتفاقاً مع آثار هذه الأمم وحقائق التَّاريخ، ويرجح

الأخذ به أدلة كثيرة<sup>64</sup>، فمن ذلك أنَّ الهجرة في هذه البلاد كانت تتجه دائماً في العصور السَّابقة للتَّاريخ، وفي العصور التَّاريخية من القسم الجنوبي الغربي (بلاد نجد والحجاز واليمن وما إليها) إلى الشَّمال والشرق (سوريا والعراق وما إليها)، ويضاف إلى ما تقدم أنَّ معظم الباحثين يقررون أنَّ أوَّل هجرة سامية إلى الحبشة كانت من بلاد اليمن، تبين رجحان الرأي الذي نحن بصدده وهو أنَّ المهدي الأول لجميع الشعوب السَّامية كان القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (بلاد نجد والحجاز واليمن وما إليها).<sup>65</sup>

ويؤيد هذا الرأي كذلك ما ذهب إليه كتياني دُونِيَانُو (Gaetani deTeano) من أنَّ هذا القسم كان في العصور السَّابقة للتَّاريخ كثيف المكان، خصب الأرض، موفور الخيرات تحترقه ثلاثة أنهر كبيرة على الأقل، وأنه على أثر بعض الظواهر البحرية وانحسار جبال الثلج إلى الشمال، فَقَدَ خِصْبَتَهُ وجفت أنهاره فنزح معظم سكانه إلى جهات أخرى، وقد اعتمد في نظريته هذه على أدلة مستمدة من البحوث الجيولوجية التي أجريت بهذه المنطقة. ويؤيد هذا الرأي تأييداً أنَّ العقلية السَّامية القديمة عقلية أساسها الحِسُّ المشاهد لا المعنوي المتخيل، فهي ضحلة التَّخيل، قليلة العمق في المعقولات المحضة لا تكاد تلمس ما وراء الطبيعة إلا برفق وسداجة وفي نطاق محدود.<sup>66</sup> وبتظافر هذه الأدلة واجتماعها يمكن القول أنَّ الجماعة السَّامية الأولى التي ورثت هذه الأمم عقليتها وحيالها ولغتها، قد نشأت في الأصل في مناطق صحراوية، فقيرة في مظاهر الطبيعة، وهذه الأوصاف متوفرة في الحجاز ونجد.

64- المرجع السابق ص10.

65- المرجع نفسه، ص11.

66- المرجع نفسه، ص11.

## 2- أقدم لغة سامية:

وكما اختلف العلماء في الموطن الأوّل للأمم السّامية، اختلفوا أيضا في اللّغة الأولى التي كان الشّعب السّامي يتكلم بها، أيام كان أبناؤه مجتمعين في موطن واحد. وقد كان أحبار اليهود في العصور القديمة يعتقدون أنّ العبرية هي أقدم لغة إنسانية، وانتشر هذا الرأي عند كثير من الباحثين،<sup>67</sup> حتى إن بعض العرب أنفسهم مالوا إليه. وذهب بعضهم إلى أنّ الآشورية البابلية هي أقدم اللّغات السّامية ولم يقدم أصحاب هذه النّظرية دليلاً يعتد به، هذا إلى أن ما وُصل إلينا من الآشورية لا يعدو ألفاظاً قليلة يتعذر على ضوئها الحكم على مبلغ أقدمية هذه اللّغة، فضلاً على أنّ هذه الألفاظ القليلة ليست سامية خالصة، بل اختلطت فيها المفردات السّامية القديمة ببعض مفردات سومرية اقتبست من لغات السّكان الأصليين لهذه البلاد لدرجة لا يمكن معها تمييز هذه عن تلك. وذهبت طائفة من المحدثين وعلى رأسها العلامة (أولسّهوَرَن) (Olshausen) في مقدمة كتابه عن " العبرية" إلى أن العبرية هي أقرب اللّغات السّامية إلى اللّغة السّامية الأولى.

ويعتقد علي عبد الواحد وافي،<sup>68</sup> أنّ جميع هذه الآراء قائمة على أساس فاسد، وذلك أنّ جميع اللّغات السّامية قد اجتازت مراحل كثيرة في التّطور قبل أن تصل إلى الحالة التي أُتيح للعلماء معرفتها فبعدت بذلك كل لغة منها عن النقطة التي ابتدأت منها تطورها فمن الخطأ النظر إلى واحدة منها على أنّها أوّل لغة تكلم بها الشّعب السّامي، هذا إلى أنّه من المستحيل أن تحتفظ لغة بوحدها حتى تعددت مناطقها وتعددت طرائق المتكلمين بها، بل لا مناص من انتعاشها حينئذ إلى اللهجات ولغات... ولا يعقل أن يكون الشّعب السّامي الأوّل قد ظل محتفظاً بوحده الاجتماعية أو ظل حبيساً في منطقة واحدة من الأرض أمداً طويلاً ولذلك يمكن القطع بأنّه لم توجد أبداً أو لم تكد توجد لغة سامية واحدة، بل وجد من مبدأ النشأة عدد كبير من اللّغات السّامية.

ويلاحظ أنّ عدداً من العلماء عمد إلى الأمور المشتركة بين اللّغات السّامية في المفردات والقواعد واتخذ منها صورة للغة السّامية الأولى،<sup>69</sup> واعتبر أقرب اللّغات السّامية إلى هذه الصورة أقدمها نشأة وأولها وجوداً، وهذا المذهب لا يقل فساداً عن المذاهب السّابقة؛ لأنّ هذه الأمور المشتركة لا تمثل أكثر من وجوه الشّبه بين اللّغات السّامية في أقدم حالة أتيح للعلماء معرفتها، وقد تقدم أنّ هذه اللّغات قد اجتازت مراحل كثيرة في التّطور قبل أن تصل إلى هذه الحالة، فبعدت بذلك كل لغة منها عن الأصل القديم فهذه الأمور المشتركة لا تمثل إذن تمثيلاً صادقاً أقدم لسان تكلم به السّاميون.

67- المرجع نفسه ص12.

68- المرجع السابق ص13.

69- المرجع نفسه ، ص13.

وفي الختام يمكن القول أنّ معظم المحدثين من علماء الاستشراق على الرغم مما ذهب إليه علي عبد الواحد وافي مقتنعٌ أشد الاقتناع من أنّ اللغة العربية احتفظت بكثير من الأصول السّامية القديمة في مفرداتها وقواعدها، وأنّه لا تكاد تعدلها في ذلك أية لغة سامية أخرى، ويرجع السّبب في ذلك إلى نشأتها في أقدم موطن للسّاميين، وبقائها في نقطة مستقلة منعزلة، فقلت بذلك فرص احتكاكها باللّغات الأخرى، ولم تذلل لها سبل كثيرة للبعد عن أصلها القديم.

### 3- الخصائص المشتركة للغات السّامية:

تشارك اللّغات السّامية بوجه عام بعدة خصائص تدل من ناحية على وحدة أصلها، وتميزها من ناحية أخرى من سائر مجموعات اللّغات، ولعل أهم هذه المميزات يعود إلى أنّها:<sup>70</sup>

\*- يتألف الأصل السّامي -غالبًا- من ثلاثة أصوات ساكنة، لا يشركها أيّ من الأصوات اللينة، وذلك نحو: (ق.ت.ل) و(ر.ج.ع) وذلك بالنسبة للكلمات التي تدل على معنى مستقل، أمّا الكلمات التي لا تفيد معنى مستقلًا بذاته كالحروف نحو (قد- وعن-وبل)، والضمائر نحو (هو، وهي، وهم...) وأسماء الشرط الموصولة نحو (من، وما، وذا، وذي...) فإنّها تكون على صوتين واثنين.

وثمة فريق من العلماء وعلى رأسه الأب (مؤرّج يالدومنيكي) يذهب إلى أنّ الأصول السّامية ثنائية لا ثلاثية الأصل، وأنّ الثلاثي متفرع عن الثنائي، ويستدل على مذهبه هذا بما يأتي:

أ- ثمة أفعال لا يبقى منها سوى حرفين في بعض وجوه تصرفها نحو الأفعال (قُلْتُ - نِلْتُ - صُمْتُ...) (ب)- أن غالبية الأفعال ليس جميع أصوات حروفها بدرجة واحدة من الأهمية في تأدية المعنى، بل تزيد فيها - غالبًا- أهمية صوتين على أهمية الصوت الثالث، فالمعنى العام يتعلق فيها بصوتين فقط، أما الصوت الثالث فيحدد هذا المعنى العام ويوجهه وجهات خاصة، فالمعنى العام للتفرقة -مثلاً- يؤدي في العربية بالصوتين (ف، ر) ثمّ يضاف لهذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع التفرقة والمادة التي حدثت فيها، نحو: (فَرَضَ - فَرَضَ<sup>71</sup> - فَرِصَ - فَرِصَ<sup>72</sup> - فَرِحَ - فَرِحَ - فَرَزَ...) والمعنى العام للقطع بالصوتين (ق، ط) أو صوت شبيهه بالطاء كالدال ثم

70- ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية وطرائق نموها، صلاح راوي، ص 94-95. وفقه اللغة وخصائص العربية، إميل يعقوب، ص 108-109،

وفقه اللغة مفهومه - موضوعاته - قضاياها، محمد بن ابراهيم الحمد، ص 84-86

71- الفرض: الجزؤ في الشيء والقطع. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج 5 ص 115. مادة (فرض)،

72- الفرض: القطع. المصدر نفسه، ج 5 ص 113، مادة (فرض).

يُضَافُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّوْتَيْنِ صَوْتُ ثَالِثٍ، يَشَارُ بِهِ إِلَى نَوْعِ الْقَطْعِ وَالْمَادَةِ الَّتِي حَدِثَتْ فِيهَا، نَحْوُ: (قَطْعٌ - قَطْفٌ - قَطْمٌ - 73 قَطٌّ - قَدْ 74...).

\*المعنى الأساسي للكلمة يشار إليه -غالباً- بالأصوات الساكنة، أما الأصوات اللينة،<sup>75</sup> فلا تعدو وظيفتها -في الغالب- تحديد هذا المعنى وتوجيهه وجهات خاصة، فمثل (قُ - ثُ - لُ) تدل على المعنى العام للقتل و(قَتَلَ) تدل على وقوع القتل في زمن مضى مسند إلى المفرد الغائب و(قُتِلَ) تدل على وقوع الفعل في زمن مضى مسند إلى المفعول، و(قاتل) تدل على وقوع القتل ومن أوقعه و(مقتول) تدل على وقوع القتل، ومن وقع عليه... إلخ. وبهذا نجد أن الأصوات الساكنة تنال أكبر قسط من الأهمية أو أظهر منها في السمع.

\*الأصوات اللينة قد تغفل إغفالاً تاماً أو يشار إليها بإشارات مضطربة غير دقيقة كما في رسم المصحف. \*ليس للفعل في معظم اللغات السامية سوى زمنين اثنين، فعل انتهى زمنه وهو الماضي، وفعل لم ينته زمنه وهو المضارع للحال والاستقبال والأمر.

\*يؤنث الاسم والصفة بإضافة (تاء) إلى الاسم المذكور نحو: (قائم - قائمة)، (منطلق - مُنْطَلِقَةٌ)، (مُسْتَفْهَمٌ - مُسْتَفْهَمَةٌ) وهكذا.

\*تشابه كثير من المفردات في معانيها في اللغات السامية، ومن الألفاظ المشتركة بينها ألفاظ القرابة مثل: (أب - أم - أخ - أخت) وألفاظ تدل على أعضاء الجسم مثل: (العين - الأذن - اليد - الرجل - الرأس...). وألفاظ تدل على الحيوانات مثل: (ليث - عجل - كلب...). وأخرى تدل على النباتات مثل: (قمح - سنبله - ثوم)، وألفاظ تشترك في الدلالة على الضمائر مثل: (أنا - نحن - هو - هي...). كما تشترك في الألفاظ الدالة على الأعداد من واحد إلى عشرة، وألفاظ دالة على الأسرة<sup>76</sup> وهكذا.

\*ظاهرة الإعراب ظاهرة سامية قديمة معروفة في النقوش القديمة كالأكدية وكما هو الحال في العربية، وفقد الإعراب في بعض اللغات السامية المتأخرة حدث متأخر.<sup>77</sup>

\*تقسم اللغات السامية الاسم من حيث العدد إلى مفرد ومثنى وجمع، والمثنى لا يعرف في كثير من اللغات.<sup>78</sup>

73- قَطْمُ الشَّيْءِ قَطْمًا: قِطْعَةٌ. ينظر: لسان العرب، ابن منظور ج5، ص287. ، مادة: (قَطْمٌ)،

74- القُدُّ: القِطْعُ المتأصل والشق طولاً. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج5، ص207. مادة(قُدد)،

75- أصوات اللين نوعان: قصيرة وهي: الفتحة والضم والكسرة، وطويلة وهي الألف، والواو والياء.

76- ينظر: فقه اللغة مناهجه ومسائله، محمد أسعد النادري، ص115.

77- ينظر: فقه اللغة مفهومه وموضوعاته وقضاياها، محمد إبراهيم الحمد، ص85.

78- المرجع نفسه، ص85.

\* تمتاز اللُّغات السَّامية باحتوائها على حروف الحلق،<sup>79</sup> (الهَمْزة والمهاء والعين والحاء والغين والخاء) بحيث لا تخلو سامية من بعض هذه الحروف ويضيع منها بعضها أو يتحول إلى صوت آخر تحت تأثير اللُّغات الأخرى، وقد استنتج العلماء أنَّ السَّامية كانت تعرف حروف الحلق كما هي في العربية، وأنَّ فقدانها من غير العربية طراً على السَّاميات خصوصاً حرف (الحاء).

وحروف التفتيح أو الإطباق<sup>80</sup> (ص - ض - ط - ظ - ق) من مميزات اللُّغات السَّامية، وقد أجمع الباحثون على وجود القاف والطاء والصاد في كل اللُّغات السَّامية، أمَّا الظاء فيظن أنَّها متطورة من الصاد والضاد من خصائص العربية، فلا توجد في غيرها.

والحروف بين الأسنان (ذ - ث - ظ) مما يميز السَّامية، فالذال والطاء صوتان أصليان في السَّامية الأولى، وإنَّ فقداناً من بعض اللغات السامية وتحولاً إلى أصوات أخرى كما هو في العاميات المصرية. ومما لا شك فيه أنَّ صلوات القرابة كثيرة ومتنوعة وهي تعطي مستويات اللُّغة المختلفة من صوتية وحرفية ونحوية ومعجمية.

#### 4- وجوه الخلاف بين اللُّغات السَّامية:

يبدو أنَّه ومع شدة القرابة والتشابه بين اللُّغات السَّامية فإنَّ بينها كثيراً من الاختلاف بحيث نلاحظ أنَّ لكل لغة منها مميزات خاصّة بها:

\* من وجوه الاختلاف في القواعد أداة التعريف، فهي في العربية ( ال ) في أول الكلمة، وفي العبرية وبعض اللُّهجات العربية البائدة حرف ( هـ ) في أول الكلمة، وفي السبئية حرف ( نون ) في آخر الكلمة وفي السريانية حرف ( آ ) في نهاية الكلمة، أمَّا الآشورية والبابلية والحبشية فلا أداة للتعريف فيهما مطلقاً.<sup>81</sup> وعلامة الجمع<sup>82</sup> في العبرية حرف ( م ) للمذكر، والواو والتاء للمؤنث، وفي الآرامية حرفا ( ين )، في حين علامة الجمع للمذكر في العربية حرفا ( الواو والنون ) حالة الرفع، و ( الياء والنون ) حالتي النصب والجر، وللمؤنث ( الألف والتاء ) في آخر الكلمة، وللدلالة عليهما معا صيغ تعرف باسم صيغ جمع التكسير.

79- المرجع نفسه ص 84.

80- المرجع نفسه، ص 84.

81- فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص 17، وينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، إميل بديع يعقوب، ص 112.

82- فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص 17، وينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، إميل بديع يعقوب، ص 112.

\*ومن وجوه الاختلاف في الأصوات أن الأصوات العربية (ذ- غ- ظ- ض) لا وجود لها في العبرية، والصوتان العبريان (p و v) لا وجود لها في العربية، ولا وجود (للعين) و (القاف) و(السين) في البابلية، وأغلب ما يأتي في العبرية (بالسين) يأتي في العربية والحبشية بالشين والعكس بالعكس.

\*تختلف اللغات السامية في بناء الفعل للمجهول<sup>83</sup>، ففي العربية يضم أول الفعل في الماضي ويكسر ما قبل آخره، ويضم أول الفعل في المضارع ويفتح ما قبل آخره، أمّا في الآرامية فيزداد على الفعل الماضي الثلاثي للغائب (إث) في أوله، وعلى الفعل المستقبل للغائب (نث) في أوله.

## ثانيا: اللغة العربية ولهجاتها<sup>84</sup>

### تمهيد:

تعد اللغة العربية هي لغة العرب، ووعاء الرسالة الخاتمة، وهي التي حملت أمانة الحضارة الإسلامية عبر القرون إلى ملايين البشر، وبها نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وتمتد كلغة دين إلى الملايين من البشر، صمدت حين اهتزت لغات كثيرة، وبقيت حين بادت السنة، وكسبت أرضا وناسا حين انحسرت لغات أخرى. وقد ظهرت العربية فجأة على مسرح الحضارة العلمية لغة نامية وناضجة في أسمى صورة لها في صرفها ونحوها وبيانها وسعة مفرداتها.

وحين تفكر في حال اللغة العربية قبل ظهور المسيحية (أي قبل الإسلام بسبعة قرون) نجد أنفسنا في ظلام دامس، فليس بين أيدينا نصوص عربية ترجع إلى تلك العهود، فأقدم ما عشر عليه لا يكاد يتجاوز القرن الثالث الميلادي وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة قبل المسيحية أو أنها لغة حديثة نسبيا، بل إن المستشرقين وعلماء اللغة يؤكدون أن اللغة العربية المألوفة لنا قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى اللغة السامية الأم أكثر مما احتفظت به الساميات الأخرى.

لهذا فقد اختلف علماء اللغات حول أولوية اللغة العربية ومنشئها وموطنها، ومراحل طفولتها وتطورها اختلافا كبيرا، فحين تغيب الوثائق والنصوص يزيد الاختلاف بين الباحثين، فليس بين أيدينا ما يلقي الضوء على البداية

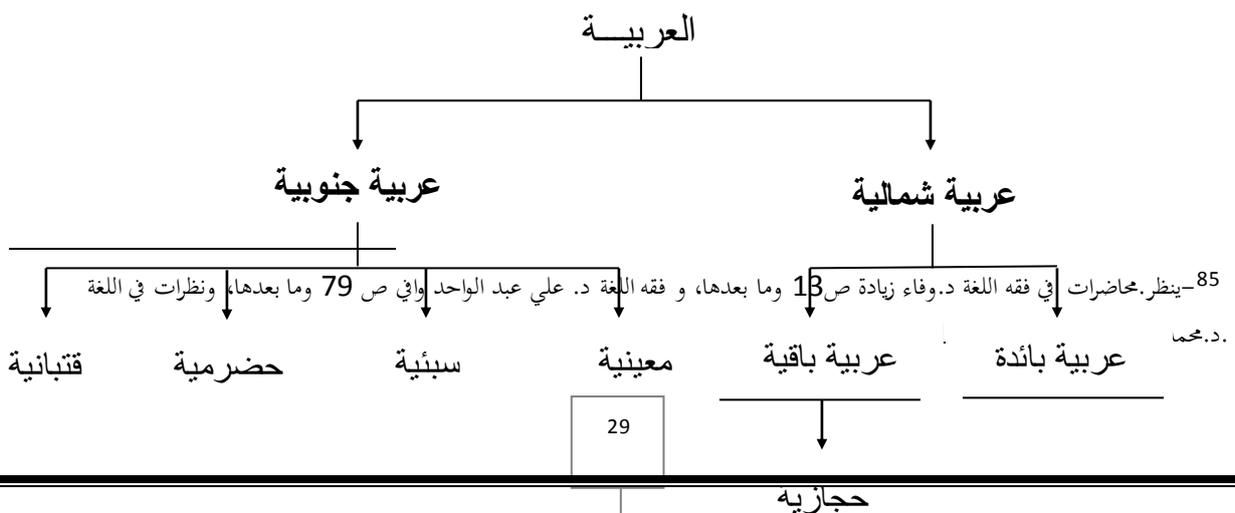
<sup>83</sup>- فقه اللغة مناهله ومسائله، محمد أسعد النادري، ص116-117.

<sup>84</sup>- ينظر. محاضرات في فقه اللغة د. وفاء زيادة ص10- 11، ونظرات في اللغة د. محمد مصطفى رضوان ص116-117- 118 -

الأولى للغة العربية. ولعل السبب في فقدان تلك النصوص والوثائق، أمية العرب الأقدمين، وعدم اهتمامهم بتسجيل أحداثهم في صورة مكتوبة، بل كانوا يعتمدون على الرواية و المشافهة. وتكاد تجمع أقوال علماء اللغة أن العربية تنحصر في الذي وصلنا من الأدب الجاهلي والقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وأنها وصلتنا في مدّة لا تتجاوز القرنين قبل بعثة الرسول الكريم ، وقد وصلتنا -من خلالها- تامة التكوين، ناضجة الأساليب.

وليس من المقبول أن تكون قد ظهرت على الوجود فجأة على هذه الصورة من النضج، لذا فقد حاول بعض العلماء البحث عن تاريخ تقريبي لنشأة تلك العربية، وقد استطاعت بعض الدراسات الحديثة أن تصل إلى أن هذه اللغة التي لم تكن يُعرف لها تاريخ أبعد من قرنين من الزمان قبل نزول القرآن-تعود إلى ما قبل (2500 ق.م) أي أقدم نص أكادي. والأكادية إحدى اللغات الميتة التي كشفت عنها وعن غيرها البحوث الأثرية في منطقة الشرق الأدنى، والتي عكف الباحثون على دراستها، وتبين لهم أنها إحدى اللغات السامية، ومعنى هذا أن اللغة العربية ظلت لغة حية تنمو وتتطور على مدى ما يزيد كثيرا عن ثلاثة آلاف عام، محتفظة في هذه الرحلة الطويلة بأقدم خصائصها اللغوية مما جعل علماء اللغة ينظرون إليها اليوم على أنها أقدم اللغات السامية، وأقربها إلى اللغة السامية الأم . وهذا أقصى ما يمكن أن نصل إليه -حاليا- في البحث عن نشأة العربية، فقد تظهر مستقبلا نقوش وآثار أخرى تلقى مزيدا من الضوء على نشأتها. فاللغة العربية قديمة النشأة، بدأت حياتها ضيقة محدودة كشأن كل اللغات، وترجمت عن أغراض بدائية بسيطة، وتدرج فيها ابتكار الكلمات، ثم نمت وتدرجت وارتفعت برقي الفكر و الحضارة. وقد اختلف الناس قديما في (العرب)، لم سموا عربا؟، فقال بعضهم: أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب هو يَعْرُب بن قحطان وهو أبو اليمن كلهم، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام- معهم فتكلم بلسانهم. وقيل إن أولاد إسماعيل نشأوا ب(عربية)، وهي موضع في تهامة فנסبوا إلى بلدهم. وقد ذكر ابن فارس أن لغة العرب لم تنته إلينا بكليتها وأن الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير، وأن من الكلام ذهب بذهاب أهله.

**1- أقسام العربية<sup>85</sup>** يبدو أن هذه العربية التي نتحدث عن نشأتها وطفولتها لم تكن قسما واحدا بل عدة أقسام، وهو ما يوضحه الشكل الآتي :



لحيانية-ثمودية  
صفوية  
تميمية-حجازية  
↓

أ- العربية الشمالية: على ضوء ما انتهى إليه الدرس اللغوي الحديث من آثار يمكن تقسيم العربية الشمالية قسامين: العربية البائدة، والعربية الباقية.

● "العربية البائدة" -وتسمى أحيانا عربية النقوش - فتطلق على لهجات كان يتكلم بها عشائر عربية تسكن شمال الحجاز على مقربة من حدود الآراميين، وكان لتطرف هذه اللهجات في الشمال، وشدة احتكاكها باللغات الآرامية، وبُعدها عن المراكز العربية الأصلية بـ (نجد) و(الحجاز) أثره في اختلاف هذه اللهجات عن العربية.

ولم تصل إلينا هذه اللهجات إلا عن طريق نقوش عشر عليها في مساحة واسعة تمتد من دمشق إلى منطقة (الغلا) في شمال غرب شبه الجزيرة العربية. ويظهر من هذه النقوش أن المتكلمين بتلك اللهجات كانوا في عزلة عن عرب "نجد" و"الحجاز"، وأنهم فقدوا كثيرا من مقوماتهم العربية، وصبغت لغتهم بالصبغة الآرامية. وأهم اللهجات العربية البائدة ثلاث: الثمودية، والصفوية، و اللحيانية.

فالثمودية : هي اللهجة المنسوبة إلى قبائل "ثمود" التي ذكرها القرآن الكريم وذكر مساكنها في مواضع كثيرة، وتاريخ معظم النقوش المدونة بهذه اللهجة يعود إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد. وقد وجدت النقوش الثمودية في منطقة (مدائن صالح) في شمال غرب الجزيرة العربية، وفي مناطق أخرى مجاورة لها مثل (مدينة الغلا) كما وجدت أيضا في (حائل) و(تيما) و(تبوك)، وهنا عدة نقوش ثمودية وجدت كذلك في (شبه جزيرة سيناء). وتعرف النقوش الثمودية عددا كبيرا من الظواهر التي نعرفها في العربية.

-وفرة من الأفعال التي نعرفها في العربية حق المعرفة مثل: علم - حل - بات - رعى - رهب - بان - كتم - رد - عشق..، وفيها وزن "فاعل" مثل ساعد، ووزن "أفعل" مثل أبت. وكذلك فيها عدد من حروف الجر مثل : إلى - في - من - الباء - اللام، وفيها عدد من المفردات الشائعة في العربية مثل : جمل - ناقة - فرس - وعل - فلان - آل - أسير - أسد - حزم - ظلم - نصر.

كما أن فيها عددا من أسماء الأعلام العربية مثل : أحمد ،وبدر ،ووائل، وزيد، وحليم ،وطاهرة ،وظريف ،و كلب، ومطر، ومروان.

-أما الصفوية فتنسب إلى المكان الذي وُجِدَتْ فيه ، وهي منطقة "جبل الصفا" الواقع جنوب شرق دمشق ،حيث عثر على مجموعات كبيرة من هذه النقوش، وأكثر النقوش الصفوية يخلو من أية إشارة تاريخية، ولكن بعضها يشير إلى بعض الأحداث المعروفة ، فقد ذكرت النقوش أحداثا كثيرة من القرن الثاني الميلادي، ولا شك أن الصفويين كانوا في هذه المنطقة قبل هذه الأحداث بوقت طويل. ولكن بداية كتابة النقوش الصفوية مازال يكتنفها الغموض.

والنقوش الصفوية فيها ظواهر كثيرة تجعل الباحثين يقررون أنها تمثل لهجة عربية شمالية:

-فنجد فيها الأفعال: ندم - تشرق - لعن - نهل - سمع - قتل - رعى.

-وفيها بعض الأسماء الشائعة: فرس - حنان - ضال - خيل - خال - خمسة - كبير - ملك.

-وبجانب هذا يوجد عدد كبير من أسماء الأعلام العربية ترد في هذه النقوش، مثل أُذَيْنَة - جمال - هَمَام - وَهَب

- جيب - سالم - سميع - سعد - غانم - فُهر.

-أما اللحانية، فإنها تنسب إلى دولة الحِمْيَر التي تذكرها النقوش، باعتبارها كيانا سياسيا يحكم منطقة في شمال غرب الجزيرة العربية، وقد وجدت مجموعات من هذه النقوش في منطقة ( الغلام). ولم يثبت بعد بصورة قاطعة تاريخ هذه النقوش ، ولكن يظهر أن أقدمها يتجاوز القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد ، وأحدثها لا يتجاوز السادس بعد الميلاد. وهذه النقوش فيها كثير من الخصائص التي تجعل الباحثين يدرجونها في اللهجات العربية المبكرة، ففيها الألفاظ الآتية:

عبد - رب - يوم - بيت - رأى - عرض - نعم - ملك - صام - امرأة - شبيعة - حرة - غلام. وهذه الألفاظ مما نعرفه في العربية.

● العربية الباقية فهي التي تنصرف إليها كلمة العربية إطلاقها ، والتي لا تزال تستخدم عندنا وعند الأمم العربية الأخرى، لُغَةً أدبٍ وكتابة وتأليف. وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد والحجاز، ثم انتشرت في كثير من المناطق التي كانت تشغلها من قبل أخواتها السامية والحامية، وتشعبت منها اللهجات العربية، قديما ، وحديثا ، ولا نعلم شيئا عن طفولة هذه اللغة، إذ لم يعثر العلماء في مواطنها الأولى بنجد والحجاز على آثار منقوشة أو مكتوبة تلقي ضوءا على حالتها الأولى.

وأقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يُعرف بالأدب الجاهلي، وهو آثار أدبية تنسب إلى طائفة شعراء العصر الجاهلي وحكمائه وخطبائه ولكنها لم تجمع وتدون كلها إلا في القرون الأولى للعصر الإسلامي. ويرجع تاريخ

أقدمها إل القرن الخامس بعد الميلاد ( أي قبل قرن أو قرنين من الإسلام) على أبعد تقدير . وهي تمثل هذه اللغة في أوج اكتمالها وعظمتها بعد أن اجتازت مراحل كثيرة في التطور والارتقاء، وبعد أن تكونت لغة مشتركة من لهجاتها، صارت هي اللغة الفصحى ، واستأثرت بميادين الأدب، شعرها ونثرها، في مختلف القبائل العربية.

## ب-العربية الجنوبية<sup>86</sup>

ويُطلق عليها أحيانا اسم " اليمنية القديمة " أو ( الفحطانية ) ويلقبها بعضهم أحيانا بـ (السبئية) تسمية لها بإحدى لهجاتها الشهيرة التي تغلبت عليها جميعا في صراعها معها. وتعرف هذه اللغة قديما باسم (الحميرية).وقد اكتشفت النقوش العربية الجنوبية القديمة في القرن التاسع عشر، وأمكن بعد فك رموز خطها والتعرف على مضمون هذه النقوش وتحليل خصائصها اللغوية.

وقد وجدت هذه النقوش في النصف الجنوبي من الجزيرة العربية، فقد كانت المنطقة اللغوية العربية الجنوبية تضم الأقاليم الحالية لدولتي اليمن والقسم الجنوبي من المملكة العربية، وهناك عدد من النقوش الجنوبية خارج هذه المنطقة، فقد أقام عدد من عرب الجنوب محطات تجارية في شمال غرب الجزيرة العربية.وتغطى هذه النقوش فترة طويلة تمتد إلى أكثر من ألف عام، فأقدم هذه النقوش يعود للقرن الخامس قبل الميلاد، ويؤرخه بعضهم بالقرن الثامن قبل الميلاد، أما آخر هذه النقوش فيرجع باتفاق الباحثين إلى الربع الثالث من القرن السادس الميلادي. ومعنى هذا أن النقوش العربية الجنوبية القديمة ترجع إلى أكثر من عشرة قرون. وعندما قلّت النقوش الجنوبية في أواخر القرن السادس الميلادي كانت العربية الشمالية قد بدأت تنتشر في المنطقة اللغوية الجنوبية.وأهم اللهجات العربية الجنوبية أربع ، المعينية، والسبئية ، والحضرية، والثبائية.

**1-المعينية:** وهي تنسب إلى المعينيين الذين أنشأوا بجنوب اليمن أقدم مملكة في بلاد العرب ولا نعلم على وجه اليقين متى نشأت هذه المملكة، وإن كانت بعض الدلائل تشير إلى تكوينها حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.ويبدو أن اللهجة المعينية لم تعمر طويلا،فكل نقوشها ترجع إلى الفترة السابقة على الميلاد. وقد وجدت هذه النقوش في بعض مناطق اليمن، وفي "ديدان" شمال غربي الجزيرة العربية.ومن السمات الأساسية في هذه اللهجة استخدام السين بدلا من الهمزة في وزن "أفعل" ، فهو في العربية "أفعل" بينما في المعينية "سَفْعَل" .

**2-السبئية:** وهي تنسب إلى السبئيين الذين قوّضوا ملك المعينيين، وهي مملكة سبأ التي كانت عاصمتها مدينة (مأرب) الشهيرة.وقد وصلت إلينا اللهجة السبئية عن طريق نقوش كثيرة عثر عليها حديثا في مختلف بلاد اليمن، وخاصة في منطقة مأرب.وقد ظلّت السبئية سائدة في بلاد اليمن خلال المدة الطويلة التي قبض فيها السبئيون

ينظر . محاضرات في فقه اللغة د.وفاء زيادة ص17 وما بعده-

على زمام الحكم، بل لدينا من الآثار والنقوش ما يؤكد بقاء هذه اللهجة حتى في أثناء الحكم الحبش الأول لهذه البلاد ( بين سنتي 375-400 بعد الميلاد ) . وتغطي هذه النقوش فترة تمتد حوالي ألف عام. ولهذا فالمعرفة باللهجة السبئية تفوق المعرفة بباقي اللهجات العربية الجنوبية القديمة.

ومن السمات الأساسية في اللهجة السبئية استخدام الهاء في تكوين عدد من الصيغ الصرفية فوزن التعديّة في العربية الشمالية (أفعل) يقابله في السبئية وزن ( هفعل) ،

**3- الحضرمية:** هي اللهجة المنسوبة إلى قبائل حضرموت التي أنشأت في المنطقة الجنوبية السماة بهذا الاسم حضارة زاهرة ومملكة قوية، وظلت مملكتهم تنازع سبأ الحكم والسلطان مدة طويلة لكن النصر كتب في النهاية لـ " سبأ". وقد وجدت أكثر نقوشها في منطقة (حضرموت).

**4- اللهجة القُتبانِيّة:** وهي تنسب قبائل (قتبان) التي أنشأت مملكة كبيرة في المناطق الساحلية الواقعة شمال عدن، وقد نشبت بين مملكتهم ومملكة سبأ حروب كثيرة، كان من نتائجها انقراض مملكتهم، واندماج قبائلهم في (سبأ) . وكان ذلك في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. وقد وصلت إلينا اللهجة القُتبانِيّة عن طريق بعض نقوش عُثِرَ عليها في بلاد اليمن.

## **2- انتشار اللغة العربية<sup>87</sup>**

كانت العربية قبل عصر الحضارة الإسلامية لغة لأعراب البدو المقيمين في النصف الشمالي من الجزيرة العربية، ونصف البدو المتناثرين في بعض مناطق بادية الشام والعراق، كما كانت العربية أيضا لغة المدن العربية مثل مكة والطائف. هؤلاء البدو والحضر في شمال الجزيرة العربية لم يكونوا أصحاب حضارة راقية إذا ما قورنوا بأبناء المناطق القريبة منهم في الشام أو العراق أو مصر، ولذا كانت العربية في ذلك الوقت تُعدُّ لغة محلية يتعامل بها أبناؤها في أمور حياتهم الداخلية ولا يهتم بها أحد من غير أبنائها.

هكذا كانت العربية، ولكنها بعد ظهور الإسلام لم تتفوق داخل الجزيرة العربية بل تجاوزتها إلى غيرها من بقاع الأرض شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وأصبحت العربية الأداة الوحيدة للتخاطب ولتبادل الآراء والأفكار في العالم الإسلامي الذي كان يمتد إذ ذاك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسي. ولم يكن هذا الانتشار وليد مصادفة بل بسبب عوامل أدت إلى ذلك الانتشار وساعدت عليه، وأهم هذه العوامل:

**أ- العامل الديني:** فالإسلام يقوم على ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولذا فقد ارتبطت العربية بالدين الإسلامي، وليس معنى هذا أن كل من دخل في الإسلام كان عليه إجادة العربية، ، ولكن من أراد تعمقا

ينظر . محاضرات في فقه اللغة د. وفاء زيادة ص 20 وما بعدها

في فهم القرآن الكريم وبحثا لأحكامه، وكلُّ مَنْ أراد الاشتغال بعلم الحديث رواية ودارية، كل هؤلاء كان من واجبهم أن يتعلموا العربية ويتقنوا فهمها. ولذا فهناك مؤلفات كثيرة في علوم القرآن ومصنفات مُبَكَّرَة في الحديث الشريف أعدها مسلمون من أصول غير عربية رغبوا في ذلك فكان من الطبيعي أن يتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ولغة التأليف في العلوم الإسلامية الناشئة. ولذلك ارتبط معدل تأثير العامل الديني في تعلم العربية بدرجة التدين ودرجة الاهتمام العلمي بنصوص القرآن والحديث. وقد مهَّد العامل الديني كذلك لدخول عدد من الألفاظ العربية المتعلقة بالدين والحضارة إلى لغات العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا، ففي هذه اللغات نجد الألفاظ الخاصة بالعبادات، وبالسلوك اليومي للمسلم مثل ( لا إله إلا الله، محمد رسول الله ، الله أكبر، السلام عليكم – صلاة – زكاة – حرام – حلال – عيد – حج ) مستعارة من العربية ، وكثيرا ما نسمع الآن هذه العبارات من الهنديين والباكستانيين والأفغانيين وغيرهم من المسلمين الذين لا يتحدثون بالعربية.

**ب-العامل الاجتماعي:** من أهم العوامل وأبعدها أثرا في حياة اللغة، ويحصل هذا حين تنتقل مجموعة بشرية معينة من مكان إلى آخر وباختلاط المجموعة الوافدة مع السكان القدامى ينتج علاقات لغوية جديدة. ومن المعروف أن هجرة القبائل العربية عقب الفتح الإسلامي إلى الشام والعراق ومصر والمغرب كان أهم حدث في تاريخ العربية، فقد انتشرت اللغة العربية عن طريق هذه المحجرات خارج نطاق جزيرة العرب، وأصبحت لغة الحديث والأدب والثقافة في الدولة الإسلامية الكبرى، وفوق هذا وذاك، فإن الطبقة العليا في المجتمع الواحد ذي الطبقات المتعددة تُؤثر بلا شك تأثيرا حاسما على المستويات اللغوية المستخدمة لدى الطبقات الأخرى، ومحاكاة الطبقة العليا أمر معروف ومُلاحَظ في كل مظاهر الحياة الاجتماعية، فيكفي أن تظهر بعض العادات اللغوية الجديدة عند أفراد الطبقة العليا حتى تقلد هذا التحديد طبقات عريضة في المجتمع، فتصبح تلك العادات بذلك ظاهرة اجتماعية عامة. ولما كانت الطبقات الحاكمة والعليا في الدول المفتوحة تتحدث العربية فإن من الطبيعي أن تقلدها الطبقات الدنيا في المجتمع.

**ج-العامل الحضاري:** ونعني به تعريب الدواوين. فنظام الديوان نظام مستحدث في الدولة الإسلامية، ظهر في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما توالى الفتوحات وتدفقت الأموال من الأقطار المفتوحة. فاقتضت الحال اتخاذ نظام لتقييد أسماء المقاتلين وقبائلهم ومبالغ عطاياهم، فاستشار عُمرُ ذوي الرأي فأشاروا عليه باتخاذ نظام الديوان. وقد أطلق الديوان في أيام الفتوح الإسلامية على السجلات التي كانت تشمل على حساب أموال الدولة، ثم أصبح يضاف في العصر العباسي إلى كل فرع من فروع الإدارة العباسية، فيقال ديوان التوقيع وديوان الجيش، وديوان المال.... وكان مقر دواوين الأموال في عواصم الأقطار المفتوحة، وكان هذا الديوان يُكتب في كل قطر بلغة أهله وهي في الغالب لغة الدولة التي كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامي،

فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية، وديوان الشام يكتب بالرومية، وديوان مصر بالرومية والقبطية، وكان يتولى شؤون هذه الدواوين عمال أهل الإقليم فكان عمال ديوان العراق من موالي الفرس، وعمال ديوان الشام من الروم، وعمال ديوان مصر من الروم والقبط.

وقد ظلت دواوين المال والحباية تُكتب في الأقطار المفتوحة باللغات الأجنبية المذكورة حتى كان زمن عبد الملك بن مروان، وكانت العربية قد انتشرت بين الأعاجم وحذقها قوم منهم إلى جانب لغاتهم الأصلية، ثم الدولة الأموية قد أصبحت راجحة النفوذ في الميزان الدولي، هذا إلى جانب عصبيتها الشديدة لكل ما هو عربي، فلم يكن من الطبيعي أن تظل دواوينها تكتب بلغات غير عربية. واتجهت سياسية عبد الملك إلى تعريب إدارة الدولة وبدأ بالعملة فجعلها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية ثم اتجهت عزيمة عبد الملك وعامله الحجاج بن يوسف الثقفي إلى تعريب الدواوين استكمالاً لمظاهر سيادة الدولة وإعلاء لشأن اللغة العربية. وقد ترتب على هذا الحادث التاريخي الهام أن الأعاجم -مسلمين وغير مسلمين- أقبلوا على تعلم العربية بعامل المصلحة الذاتية، وذلك للانتظام في أعمال الكتابة والخراج، وما يتصل بهما ولسهولة التقاضي في المنازعات التي كان ينظر فيها قضاء من العرب بطبيعة الحال.

وبذلك لم يكد ينتهي القرن الأول الهجري حتى كانت اللغة العربية قد عمت أهل فارس والعراق والشام ومصر، وغلبت الفارسية والرومية القبطية على أمرها، فأخذت هذه اللغات تتضاءل حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال.

**د-العامل الثقافي:** ويتمثل هذا العامل فيما أمر به الخليفة المأمون من نقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية، إذ أنه لما فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر وجدوا في مدنها مدارس للسريان فيها الفلسفة اليونانية، وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة ثم الطب والفلك والكيمياء والرياضيات.

فلما كان زمن العباسيين الأوائل ازداد إقبال المسلمين على دراسة هذه العلوم، وكان للخليفة المنصور ولع خاص بالطب والفلك فترجمت له كتب فيها عن السريانية، فلما جاء المأمون - وكان ميالاً بطبعه إلى البحث الفلسفي وآراء المعتزلة سلك مسلكاً جديداً إذ أنشأ في بغداد "بيت الحكمة" كانت مهمته ترجمة الكتب إلى اللغة العربية. واقتدى بالمأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الوجاهة والثروة في بغداد، فأقبل إليها المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس، وأخذوا يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية واللاتينية وغيرها، وأقبل الناس على الاطلاع والبحث، وظلت الحال على ذلك حتى إنه لم يكد ينتهي القرن الرابع حتى كاد تم نقل أهم كتب القدماء إلى العربية.

## الدرس الرابع:

### العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها

#### تمهيد:

يمثل الاهتمام بدراسة الدلالة من أساسيات البحث اللُّغوي لما يشكله من دور في عملية الفهم والإفهام، ولقد لقي هذا الموضوع اهتماما متواصلا ومتزايدا منذ بدايات الفكر الإنساني، حيث شغل الفلاسفة والمفكرين واللُّغويين والنُّحاة... وغيرهم على اختلاف مشاربهم الفكرية واتجاهاتهم العلمية.

فالبحث في الدلالة هو دراسة للعلاقة القائمة بين تشكل الأصوات واثلاثها فيما يعرف باللفظ، وما يؤديه من معنى ويحمله من مدلول، فالدال هو الصورة الصوتية أو الرمز المكتوب أو المنطوق (أصوات-كتابة)، وأما المدلول فهو التَّصور الذهني أو المفهوم أو المعنى أو الفكرة.

وإثبات القيمة التعبيرية للصوت البسيط -وهو (الحرف في كلمة)- كإثبات هذه القيمة نفسها للصوت المركب وهو ثنائي لا أكثر، أو ثنائي ألحق به حرف أو أكثر، أو ثلاثي مجرد ومزيد، أو رباعي منحوت، أو خماسي، أو سداسي على طريقة العرب، مشتق أو مقيس.<sup>88</sup> إنَّ الإقرار بوجود علاقة بين صوت الكلمة ومعناها يدفع إلى جملة من التساؤلات ومنها:

- ما طبيعة العلاقة القائمة بين صوت الكلمة ومعناها (الدال والمدلول)؟

88- دراسات في فقه اللُّغة العربية، صبحي الصالح، ص142.

- ما حدود هذه العلاقة ومداهما فهي موجبة أي لازمة، وضرورية بحيث إذا ذكر الصوت أو الاسم أثار بالضرورة صورة المسمى أو المدلول عند جميع الناس؟ أم أن العلاقة اعتباطية اصطلاحية قائمة في أذهان المتعارفين عليها فقط دون غيرهم؟

**1- مفهوم (اللفظ):** نتوقف هنا عند مفهوم اللفظ من الناحية اللغوية ثم الاصطلاحية على النحو الآتي:

#### أ- لغة:

يذكر المعجم اللغوي العربي مفهوما للفظ على دلالاته على الطرح والرمي والنبذ مطلقا، سواء أكان هذا الطرح من الفم أم غيره، وسواء أكان المطروح من الفم صوتا أو غيره.

فقد جاء في مقاييس اللغة لأحمد بن فارس قوله: "اللام والفاء والطاء كلمة صحيحة تدل على طرح الشيء، وغالب ذلك أن يكون من الفم، تقول: لفظ بالكلام يلفظ لفظا، ولفظت الشيء من فمي...<sup>89</sup>".

وفي الكليات للكفوي (ت: 1094هـ) اعتبر اللفظ في أصل اللغة: "مصدر للفعل بمعنى الرمي، ويتناول ما لم يكن صوتا وحرفا، وما هو حرف واحد وأكثر، مهملا كان أو مستعملا، صادرا من الفم أو لا، ثم خص في عرف اللغة بما صدر من الفم من الصوت المعتمد على المخرج حرفا واحدا أو أكثر مهملا أو مستعملا...<sup>90</sup>".

وذكر ابن منظور في اللسان (ت: 711هـ) أن: "لفظت الشيء من فمي ألفظه لفظا؛ رميته،... والبحر يلفظ الشيء يرمي به إلى الساحل.. ولفظ بالشيء يلفظ لفظا: تكلم، ولفظت بالكلام وتلفظت به أي تكلمت به...<sup>91</sup>".

وقال الشيخ خالد الأزهري (ت: 905هـ): "واللفظ في الأصل مصدر لفظت الرمي الدقيق إذا رمته إلى الخارج، والمراد باللفظ هنا (في اصطلاح التحويين) الملفوظ به وهو الصوت من الفم المشتمل على بعض الحروف المحيائية تحقيقا ك(زيد)، أو تقديرا كألفاظ الضمائر المستترة. وسمي الصوت لفظا لكونه يحدث بسبب رمي الهواء من داخل الرئة إلى خارجها إطلاقا لاسم السبب على المسبب"<sup>92</sup>.

يلاحظ أن التعريفات السابقة على اختلاف عباراتها تتفق على تقديم مفهوم عام ثابت للفظ وهو انحصاره في الملفوظ أو المنطوق، كما أن مصطلح اللفظ يرتبط بمصطلحات أخرى تحيط به وتلازمه وهي القول والكلم والكلام والكلمة.

89- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج 5 ص 259 مادة: (لفظ)،

90- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، ص 795.

91- لسان العرب، ابن منظور، ج 5 ص 509-510..، مادة: (لفظ)

92- شرح التصريح على التوضيح، الشيخ خالد الأزهري، تح: فيصل الحلبي، ج 1، ص 19-20.

## ب-اصطلاحًا:

ذكر الشريف الجرجاني (ت:816هـ) أن مفهوم اللفظ اصطلاحاً هو: " ما يتلفظ به الإنسان أو في حكمه مهملاً كان أو مستعملاً"<sup>93</sup>.

ويرى الكفوي(ت:1094هـ) أنّ اللفظ هو عبارة عن صورة المعنى الأول الدال على المعنى الثّاني حيث يقول: " إذا وضعوا اللفظ بما يدل على تفخيمه لم يريدوا اللفظ المنطوق، ولكن معنى اللفظ الذي دل به على المعنى الثاني"<sup>94</sup>.

## 2- مفهوم المعنى: للمعنى مفهوم في اللغة وآخر في الاصطلاح :

### أ- لغةً:

إن (معنى) كل كلام ومَعْنَاهُ وَمَعْنِيَّتُهُ مَقْصِدُهُ<sup>95</sup>، فهو ما يقصد بشيء، ولا يطلقون المعنى على شيء إلا إذا كان مقصوداً وأماً إذا فهم الشيء على سبيل التَّبعية فيسمى مَعْنَى بالعرض لا بالذات<sup>96</sup>. يتضح مما تقدم أنّ القصد قيد وشرط فيما يتلفظ به، فإذا كان المفهوم اللُّغوي للمعنى أنّه المقصود باللفظ، فالقصد شرط في اللفظ والمعنى، فلا يمكن اعتبار الملفوظ كلاماً إذا لم يكن اعتبار للقصد.

## ب-اصطلاحًا:

المعنى أو المعاني هي الصورة الذهنية إذا وقع بإزائها اللفظ من حيث أنها تقصد منه، وذلك ما يكون بالوضع، فإن عُبر عنها بلفظ مفرد سمي المعنى مفرداً، وإن عبر عنها بلفظ مركب سمي معنى مركباً<sup>97</sup>. فطبيعة اللفظ والمعنى هو تحقيق التلازم، فلا يمكن أن يوجد لفظ من دون معنى، والعكس صحيح أيضاً، فلا وجود لمعنى من دون لفظ فاللفظ هو القصد من الصورة الذهنية الحاصلة في العقل.

## 3-علاقة اللفظ بالمعنى في الفكر اليوناني والهندي:

قبل أن نتحدث عن العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى في الفكر اللُّغوي العربي، حري بنا أن ننظر في فكر الأمم الأخرى من اليونانيين والهنود الذين كانت لهم رؤى ونظرات في توضيح العلاقة بين اللفظ والمعنى، لأنه لا شك من وجود صلة قوية وواضحة في رسم هذه العلاقة في التراث الفكري العربي بما انتهى إليه اليونانيون والهنود في حدّ هذه العلاقة ورسم حدودها.

<sup>93</sup> - التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، ص161.

<sup>94</sup> - معجم الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص795.

<sup>95</sup> - المصدر السابق ص842.

<sup>96</sup> - المصدر نفسه ص842.

<sup>97</sup> - كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ج2، ص1084.

## أ - عند اليونانيين:

تقوم نظرة الفلاسفة اليونانيين إلى علاقة اللفظ بالمعنى على أنّها علاقة ذاتية طبيعية، بمعنى أنّ الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها قائمة في الذهن فبمجرد ذكر اللفظ تثار دلالاته المخصصة له في الذهن، فكل لفظ تقابله دلالة خاصة، غير أن هذه الصلة المتصورة يمكن أن تنقطع بسبب تقادم العهد، أو بسبب ما يحدث للأصوات من تطور يجعل تفسير هذه الصلة أمرا صعبا مما حدا بهم إلى افتراض أن الصلة الطبيعية كانت واضحة سهلة التفسير في بدء نشأتها، ثم تطورت الألفاظ ولم يعد من اليسير أن نبين بوضوح تلك الصلة، أو نجد لها تعليلا أو تفسيراً<sup>98</sup>. وهذا الرأي لم يكن عاما عند كل فلاسفة اليونان، بل هو رأي أفلاطون والسفسطائيين<sup>99</sup>، ذلك أنّ أرسطو وهو تلميذ أفلاطون يرفض هذه الفكرة أي فكرة الصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى، ويرى أنّ العلاقة بين هذه الإثينية عرفية اصطلاحية بتواضع الناس عليها في مجتمع ما<sup>100</sup>، كما ذهب سقراط إلى القول بأن هذه العلاقة طبيعية مع بعض الألفاظ، وعرضية مع ألفاظ أخرى ترسخت في الأذهان عن طريق التكرار.

## ب - عند الهنود:

لقي موضوع الصلة بين اللفظ والمعنى من قبل الهنود اهتماما كبيرا لعله فاق اهتمام اليونانيين أنفسهم، بحيث سادت مناقشات واسعة عند جمهور كبير من فلاسفتهم، ومما شدّ الاهتمام في هذه المناقشات ثلاثة عناصر في صلة اللفظ بالمعنى وهي: الكلمة، والإدراك، والاحتوى.

ف(الكلمة) مركب من وحدات صوتية ضم بعضها إلى بعض، والشيء المحسوس فلفظ (بقرة) أو (ناقة) أو (جمل) مثلا ينظر إليه على اعتبار المذكور نوعا معينا من الحيوانات له أعضاء معينة، وأما الإدراك أو التصور، فهو الربط بين اللفظ والشيء المدلول عليه، وهذا يستلزم معرفة سابقة به.

ويرى فلاسفة اليونان أنّ العلاقة بين الدال والمدلول إذا كانت متباينة ولا يمكن تصور وجود علاقة أساسية بينهما فإنّ الإجابة على هذا التباين اصطليغ بصيغة لاهوتية أو فلسفية واختلفت الآراء حولها على النحو الآتي<sup>101</sup>:

**-الرأي الأول:** يرفض أصلا فكرة التباين بين اللفظ والمعنى، ويرى أن كل شيء يُتصور مقترن بالوحدة الكلامية الخاصة به أو الدالة عليه، فلا يوجد فصل بينهما، ذلك أن الكلمة عنصر من العناصر المكوّنة للشيء تماما مثلما

98 - دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص 62-63.

99 - المرجع نفسه، ص 63.

100 - المرجع نفسه، ص 63.

101 - علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 18-19.

تعد ( الطين) السبب المادي أو الرئيس لكل المواد الترابية، فكما أن تصور (الطين) مشترك في كل إدراكات الأشياء التي يعرف أنها مصنوعة منه في مثل: (الإناء)و(الصحن)و(القدر)ونحوها، فكذلك تصور الوحدة الكلامية.

**-الرأي الثاني:** يصرح أصحاب هذا الرأي بأنَّ العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة قديمة وفطرية أو طبيعية، وربما كان أصحاب هذا الرأي هم أنفسهم الذين يعتبرون نشأة اللغة على أساس من محاكاة الأصوات الموجودة في الطبيعة.

**-الرأي الثالث:** يقر بوجود علاقة ضرورية بين اللفظ والمعنى شبيهة بالعلاقة اللزومية بين النار والدخان.

**-الرأي الرابع:** يؤكد وجود صلة بين الألفاظ والمعاني وهي مجرد علاقة حادثة مرتجلة ولكنَّه طبقا لإرادة إلهية،<sup>102</sup> فالاعتبار ههنا للإرادة الإلهية وليس للاصطلاح.

#### **4-علاقة اللفظ بالمعنى عند علماء العربية قديما:**

إن عملية البحث في دلالة الألفاظ عند علماء العربية القدماء من أهم المباحث التي أثارت اهتمامهم، وتعد الأعمال المبكرة عند العرب من مباحث علم الدلالة، مثل تسجيل معاني الغريب في القرآن الكريم، ومثل الحديث عن مجاز القرآن، ومثل التأليف في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ومثل إنتاج المعاجم الموضوعية، ومعاجم الألفاظ وغيرها<sup>103</sup>. وقد تنوعت اهتمامات العرب فغطت جوانب كثيرة من الدراسة الدلالية.

وتمثل علاقة الصوت بالمعنى من الموضوعات التي حازت الاهتمام عند علماء العربية ذلك أنَّ العلاقة بينهما ذات التأثير السمعى والانطباعي لها وقع على الوجدان، فالصوت إن لم يدل دلالة محدودة فإنَّه يدل دلالة إيجاء اتجاه فيثير في النفس نازعا يجرِّضها على قبوله أو النفور منه.

ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت:175هـ) أوَّل من أشار إلى علاقة الصوت بالمعنى في قوله: " صرَّ الجُنْدُبُ صريراً، وصرَّصرَّ الأخطبُ صرصرة، فكأنهم توهموها في صوت الجندب مدا وتوهموها في صوت الأخطب ترجيعا"<sup>104</sup>.

ويتمسك ابن جني بفكرة الخليل في مواضع عدة من كتابه (الخصائص)، ومنها قوله: " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع...وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبرِّ بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره، ومن ذلك قولهم: (حَضِمَ) و(قَضِمَ)، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ، والقِثَاء، وما كان نحوها من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس نحو: قَضِمَتِ الدابَّةُ شعيرها ونحو ذلك، وفي الخبر: " قد يُدرِّكُ الحَضْمُ بالقَضْمِ " أي قد يدرك الرخاء بالشدَّة واللين بالشظف، وعليه قول أبي الدرداء: " يَحْضِمُونَ ونَقَضِمَ، والموعِد الله، " فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب،

102- المرجع السابق ص19.

103- المرجع نفسه، ص20.

104- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: عبد الحميد هنداوي، ج1، ص40.

والقاف لصلابتها لليابس حدوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث، ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه، والنضح أقوى منه في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ٦٦﴾ [الرحمن:66]، وجعلوا الحاء لرققتها للماء الخفيف، والحاء لغلظتها لما هو أقوى منه...".<sup>105</sup>

كما عقد ابن جني في كتبه (الخصائص) بابا سماه: "في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"<sup>106</sup>، ذكر فيها طائفة لا بأس بها من صور التناسب بين الألفاظ ومعانيها، ونقله عنه السيوطي (ت:911هـ) في المزهر وتمثل هذه المناسبة بين الألفاظ والمعاني في أن اللفظ يحكي صوتا من أصوات الإنسان أو الحيوان أو الطير أو الفعل الذي يحدثه الإنسان أو غير ذلك على النحو الآتي:

أ - الألفاظ التي تحكي صوت الإنسان، ومنها: القهقهة: الضحك بصوت عال يخرج معه الهواء على دفعات. الدندنة: كلام نسمع نغمته ولا نفهمه. الغمغمة: الكلام الذي يُسمع ولا يتبين. الضوضاء: اختلاط الأصوات. الهمهمة: صوت يخرج ترداد الزفير. الأنين: الصوت الرقيق يصدره المريض... هذا فضلاً عن الأصوات المعهودة كالصراخ، والتنحج، والزفير، والشهيق، والتأوه، والحشرجة، والشخير... إلخ<sup>107</sup>.

ب - الأصوات التي تحكي أصوات الحيوان والطيور: ومنهارجاء الناقه، هديل الجمل، سهيل الفرس وضبحه إذا عدا، شحيح البغل، نقيق الحمام، خوار البقر، نغاء الغنم، زئير الأسد، عواء الذئب، نباح الكلب، مواء القط، فحيح الحيات بفمها، وكشيشها بجلدها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض، طنين الذباب والبعوض... إلخ<sup>108</sup>.

ج - الألفاظ التي تحكي أصوات الطبيعة: الخريز: صوت انسياب الماء، القرقرة: صوت الآنية إذا استخرج منها الشراب، النشيش: صوت غليان الشراب، الشخب: صوت اللبن عند حلبه، الأزيز: صوت المرجل عند الغليان، الحسيس والمعمة: صوت النار، هزيم الرعد، جمعجة الرحي، وصرير القلم والباب، وخفق النعل... إلخ<sup>109</sup>.

#### د - الألفاظ التي تحكي أصوات الأحداث:

وهذا النوع من أبرز الصور التي تتحلى فيها براعة اللغة العربية، فمجرد سماع اللفظ يأتي الإحساس بوقوع الحدث وإن لم نره، فضلا على أنه قد يكون مناط التفرقة بين حدث وآخر مجرد تغيير حرف في الكلمة لا أكثر، بل ربما تقلب المعنى إلى الضد، وما يوجي به من دلالة، فقد أورد جلال الدين السيوطي خبرا عن عباد بن سلمان

105 - الخصائص، ابن جني، تج: محمد علي النجار، ج1، ص50.

106 - المصدر نفسه، ج1، ص544.

107 - فقه اللغة، إبراهيم نجا الأبياري، ص175. وينظر: المزهر في علوم اللغة للسيوطي، ج1، ص52.

108 - فقه اللغة، إبراهيم نجا الأبياري، ص176، وينظر: المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ج1، ص53.

109 - فقه اللغة، إبراهيم نجا الأبياري، ص176-177. وينظر: المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ج1، ص52.

الصميري (ت:250هـ) - وهو من المعتزلة - أنه سئل ما يسمى (إذغاغ)؟ وهو يعني بالفارسية: الحجر، فقال: "أجد فيه يُيسًا شديدًا وأراه الحجر."<sup>110</sup>

ومما يتصل بعلاقة اللفظ بالمعنى أن الأبنية والصيغ الصرفية فيها تجيء دالة على المعنى المنوط بها مفصحة عن الدلالة المقترنة بها.

ومن ذلك صيغة (استفعل) حيث جعلوها للطلب لما فيها من تقدم حروف زائدة على الأصول كما يتقدم الطلب الفعل نحو: (استقى) و(استطعم) و(استوهب) و(استفتح)...، فرتبت في هذا الباب الحروف على ترتيب الأفعال، وجعلوا الأصول الواقعة من غير طلب إنما تفجأ حروفها الأصول، أو ما ضارع الأصول، فالأصول نحو قولهم: طعم، ووهب، ودخل، وخرج، وصعد، ونزل، فهذا إخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت، ولم يكن معها دلالة على طلب لها، ولا إعمال فيها<sup>111</sup>. وفي المصادر أيضا قال سيوييه (ت:180هـ) أن التي تأتي على (الفعالن) إنما تأتي لتدل على الاضطراب والحركة نحو: النقران<sup>112</sup>، والغليان والغثيان فقابلوا بتوالي حركات الأمثال توالي حركات الأفعال<sup>113</sup> كما تأتي المصادر الرباعية المضعفة لتدل على التكرير نحو: (الزعزعة)، و(القلقلة)، و(الصلصلة)، و(الققعقة)، و(الجرجرة)، و(القرقرة). كما تأتي المصادر والصفات على (الفعلى) لتدل على السرعة، نحو: البشكى<sup>114</sup> والجَمْزَى<sup>115</sup> والوَلْقَى<sup>116</sup>. وهكذا نرى أنَّ الأبنية والصيغ الصرفية توحى بالدلالة على المعاني التي وضعت لتدل عليها، وإن لم يسبق العلم بها أو الاطلاع عليها في معاجم اللغة العربية.

## 5- العلاقة بين اللفظ والمعنى عند المحدثين في المدرسين الغربي والعربي

### أ - الدرس اللغوي الغربي:

تباينت آراء اللغويين الغربيين في مسألة علاقة اللفظ بالمعنى بحيث يرى بعضهم قيام وتحقق العلاقة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني وعلى رأس هؤلاء: همبلت (ت:1835م) الذي يقر بالمناسبة الطبيعية بين الألفاظ والدلالات، وقد اعترض هذا الرأي (مدفيج) حيث ساق كثيرا من الكلمات التي لا تتضح فيها هذه الصلة، غير أن جيسبرسن (Jespersen) عدَّ هذا الاعتراض تجنيا على (همبلت) لأنَّ هذا الأخير لم يدَّع أن مثل هذه الظاهرة تطرد في

110- المزهر في علوم اللغة، ج1، ص47.

111- المصدر نفسه ج1، ص49.

112- النقران: الوثب. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج6، ص244. مادة: (نقر)،

113- ينظر تفصيل المسألة الكتاب، سيوييه، ج4، ص14-15.

114- البَشْكَى: الخفيفة والسريعة وناقاة بشكى خفيفة المشي والروح وقد أبشكت أي أسرع.: ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (بشك)

ج1، ص212

115- الجَمْزَى: السريع، تقول حمار جمزى وثاب سريع ينظر: لسان العرب، ج1، ص457. مادة: (جمز)

116- الوَلْقَى: من (أولق) إذا أسرع في عدوه و(الولق): السير السهل السريع. ينظر: لسان العرب، ج6، ص486، مادة (ولق)

كل كلمات اللُّغة، كما أنَّه من جهة أخرى بيَّن في ثنايا عرض رأيه أنَّ الكلمات بدأت واضحة الصلة بين أصواتها ودلالاتها ثم تطورت تلك الأصوات أو تلك الدلالات، وأصبحت الصلة غامضة علينا<sup>117</sup>. فواضح مما تقدم أنَّ (جسبرسن) ممن ينتصرون لأصحاب المناسبة بين الألفاظ ومعانيها، غير أنَّه يحذر من المغالاة في الإقرار بها إذ يرى أنَّ هذه الظاهرة لا تكاد تطرد في لغة من اللغات وأنَّ بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مر الأيام في حين أنَّ كلمات أخرى تكتسبها وتصبح فيها واضحة بعد أن كانت لا تلحظ فيها، ويفصل (جسبرسن) في توضيح هذه العلاقة على النحو الآتي: 118

\* إن ما يسمى بـ (**Onomatopie**) وهي الألفاظ التي تعد صدى لأصوات الطبيعة وهي ظاهرة واضحة في كل اللغات، تشبه ما عندنا في العربية من أمثال (الحفيف) و(الخرير) و(الزفير) و(الصهيل) و(الهزيم)...إلى غير ذلك من كلمات استمدت ألفاظها من الأصوات الكونية وأصوات الحيوانات.

\* أن الألفاظ التي تعبر عن الصوت الطبيعي قد تنتقل، وتصبح معبرة عن مصدر هذا الصوت، وذلك كأن يصبح الزئير اسماً من أسماء الأسد... كذلك قد تُسمَّى حركات الإنسان بما ينبعث عنها من أصوات، فمثلاً، صوت المشي قد يطلق على المشي نفسه وهكذا.

\* قد ترتبط الألفاظ بالدلالات في بعض الحالات النفسية، كالكلمات التي تعبر عن الغضب أو النفور والكره، كما قد ترتبط بحجم الأشياء أو أبعادها، فقد لوحظ أنَّ (الكسرة) وما يتفرع عنها من (ياء المد) ترمز في كثير من اللغات إلى صغر الحجم أو قرب المسافة، مثلاً نجد أن (الياء) هي علامة التصغير، وأن الكسرة علامة التأنيث.

\* أثار (جسبرسن) إلى ما عرف عند علماء العربية من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى في مثل (كسر) و(كسّر) بالتضعيف وهكذا.

وحين نقف مع دي سوسير (De saussure)<sup>119</sup> نجد من أشهر المعارضين لأصحاب الصلة بين الألفاظ والدلالات إذ يراها اعتبارية لا تخضع لمنطق أو نظام مطرد، ومع اعترافه بتلك الصلة في الألفاظ التي تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة (Les Onomatopies) يقرر بأنها قليلة في اللغات، وهي مختلفة ومتباينة باختلاف اللغات الإنسانية، بحيث لا يصح أن نتخذ منها أساساً لظاهرة لغوية مطردة أو شبيهة بالمطرده، فهي إذن - حسب رأيه - مجرد ألفاظ قليلة تصادف أن أشبهت أصواتها دلالاتها.

## ب - الدرس اللُّغوي العربي:

117 - دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص 68.

118 - المرجع نفسه، ص 68 وما بعدها.

119 - المرجع السابق، ص 70-71.

يبدو أنّ علماء اللُّغة العرب المحدثين جدُّ متأثرين بما انتهى إليه الدرس الغربي الحديث، حيث نجد لهم اتجاهين مختلفين، اتجاه يقر بالعلاقة الطبيعية بين اللَّفظ ودلالته، وآخر ينفي وجودها، ومن الذين أشاروا بوجود هذه العلاقة:

\* **محمد المبارك** حيث استند إلى رأي ابن جني المقر بتحقيق هذه العلاقة، وضرب أمثلة لذلك، ثم خلاص إلى استنتاج يقول فيه: " فهل لنا أن نستنتج من هذه الأمثلة وأشباهاها أنّ للحرف الواحد في تركيب الكلمة العربية قيمة تعبيرية، وأنّ الكلمة الثلاثية تعبر عن معنى هو ملتقى معاني حروفها الثلاثة ونتيجة تمازجها وتداخلها"<sup>120</sup>. وفي موضع آخر يقول: " لا شك أنّ في اللُّغة العربيّة خصيصة تبهر الناظرين وتلفت نظر الباحثين، وهي تقابل الأصوات والمعاني في تركيب الألفاظ، وأثر الحروف في تقوية المعنى أو اضعافه والانسجام بين أصوات الحروف التي تتركب منها الألفاظ ودلالاتها..."<sup>121</sup>.

\* كما أيد وجود هذه الصلة الطبيعية بين الألفاظ ودلالاتها: **صحي الصالح** حيث نص عليها معجباً بما في قوله: " أمّا الذي نريد الآن بيانه فهو ما لاحظته علماءنا من مناسبة حروف العربية لمعانيها، وما لمحوه في الحرف العربي من القيمة التعبيرية الموحية، إذ لم يَعْنيهم من كل حرف أنه صوت، وإنما عناهم من صوت هذا الحرف أنّه معبر عن غرض... فكل حرف منها مستقل ببيان معنى خاص مادام مستقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له ظل وإشعاع، إذ كان لكل حرف صدى وإيقاع"<sup>122</sup>. ولكن ثمة طائفة من العلماء تنكرت تحقق ووجود علاقة طبيعية بين الدال ومدلوله ومنها:

\* **تمام حسان** حيث تبني نظرية دي سوسير ثم عقب عليها بقوله: " وليس في الفكر ما يفرض شكلامعينا للرموز الصوتية فهذه الرموز موضوعة وضعا اعتباطيا"<sup>123</sup>.

\* كما أيد **إبراهيم أنيس** فكرة اعتباطية العلاقة بين الأصوات ودلالاتها، وأنها مكتسبة اكتساباً بمرور الأيام وكثرة الاستعمال، يقول: " والأمر الذي لم يبدُ واضحاً في علاج كل هؤلاء الباحثين هو وجوب التفرقة بين الصلة الطبيعية الذاتية والصلة المكتسبة، ففي كثير من ألفاظ كل لغة نلاحظ تلك الصلة بينها وبين دلالاتها، ولكن هذه الصلة لم تنشأ مع تلك الألفاظ أو تولد بمولدها، وإنما اكتسبتها اكتساباً بمرور الأيام وكثرة التداول والاستعمال"<sup>124</sup>

120 - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 104-105.

121 - المرجع نفسه، ص 104.

122 - دراسات في فقه اللغة، صحي الصالح، ص 142.

123 - مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص 244.

124 - دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص 71.

وتحقيق القول في علاقة الألفاظ بمعانيها أن ثمة ألفاظا في اللغة عامة والعربية خاصة يكون لبعضها علاقة بين الدال والمدلول وهي موجودة فيما يصطلح عليه بـ (Les Onomatopies) وفيما اصطلاح عليه ابن جني في قوله: "إمساس الألفاظ أشباه المعاني"<sup>125</sup>، أو فيما اصطلاح عليه بقوله: "تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني"<sup>126</sup> وفي بعضها الآخر لا يمكن أن تتحقق بأية حال من الأحوال.

## الدرس الخامس: النَّبْر (في اللغة العربية)

### 1- مفهوم النبر:

**أ- لغةً:** تتفق الدراسات الحديثة على أن النبر بالمفهوم الذي يعرف به اليوم، هو ذاته الهمز في الموروث اللغوي العربي، أي أنه يظهر في صورة تحقيق الهمز في الكلام، ويمكن أن نلاحظ هذا من خلال التعاريف اللغوية لأئمة العربية ولغوييها.

ذكر ابن منظور في مادة (همز) قوله: "الهمز مثل الغمز والضغظ ومنه الهمز في الكلام لأنه يضغظ، وقد همزت الحرف فانهمز"<sup>127</sup>. فالظاهر من قول ابن منظور أن الهمز لا يقع على صوت معين ومحدد، وإنما يقع في الكلام، فكل الأصوات جديدة بتحقيق الهمز عليها.

وفي مادة (نبر) يقول ابن منظور: "النبر بالكلام الهمز، والنبر مصدر نبر الحرف ينبره نبراً: همزه، وفي الحديث: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا نبيء الله، فقال: (لا تنبر باسمي)، والنبر: همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها..."<sup>128</sup>، ثم ذكر: "ورجل نبار: فصيح الكلام، ونبار بالكلام: فصيح بليغ. وقال اللحياني: رجل نبار:

125- الخصائص، ابن جني، ج2، ص152.

126- المصدر نفسه، ج2، ص113.

127- لسان العرب، ابن منظور، ج6، ص354. مادة: (همز)،

128- المصدر نفسه، ج6، ص127. مادة: (نبر)،

صَيَّاح، ابن الأنباري، النَّبْر عند العرب: "ارتفاع الصوت، يقال: نَبَّر الرجل بنبرة: إذا تكلم بكلمة فيها علو... "129.

يفهم من كلام ابن منظور أنَّ النَّبْر هو الهمز، والرجل الذي ينبر في كلامه يسمى نَبَّارًا بمعنى فصيح الكلام وبلغ فيه، والنَّبْر والهمز والضغط بمعنى واحد.

**ب- اصطلاحًا:** ذكر علماء اللغة المحدثين تعريفات عديدة للنَّبْر تجتمع حول معنى الضغط على مقطع معين يكسبه الوضوح السمعي مقارنة بالمقاطع الأخرى.

**-تعريف كمال بشر:** " هو نطق مقطع من المقاطع الكلمة بصورة أوضح وأجلى نسبيًا من بقية المقاطع التي تجاوره... ويتطلب النبر عادة بذل طاقة في النطق أكبر نسبيًا، كما يتطلب من أعضاء النطق مجهودًا أشد"130.

**-تعريف ماريو باي،** يقول فيه: " النَّبْر معناه أنَّ مقطوعًا من بين مقاطع متتابعة يعطي مزيدًا من الضغط أو العلو (نبرعلوي) أو يعطي زيادة أو نقصًا في نسبة التردد (نبريقوم على درجه الصوت)"131.

**-تعريف تمام حسان هو:** " وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا ما قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام، ويتكون نتيجة عامل أو أكثر من عوامل الكمية والضغط والتنغيم"132.

**-تعريف مصطفى حركات** يقول فيه: " النَّبْر وسيلة صوتية نبرز بواسطته عنصرًا من السلسلة الصوتية، قد يكون مقطوعًا أو لفظًا أو جملةً، والنَّبْر يكون بواسطة الشدة في النطق، أو ارتفاع النغمة أو المد"133.

يتضح من التعريفات السابقة أنَّ التفاوت في درجة الضغط على مقطع معين هو الذي يعطيه صفة التميز على غيره من المقاطع الأخرى المقترنة به على مستوى اللفظ أو التركيب، فالضغط أو الارتكاز على مقطع معين دون بقية المقاطع الأخرى هو الذي يحدد موقع النَّبْر وموضعه، وبناء على هذا فإنَّ الضغط يعد عاملاً من عوامل النَّبْر، وليس هو النَّبْر ذاته وهو ما يمكن ملاحظته على مقولة تمام حسان وهو يؤكد هذا المعنى "...فالضغط لا يسمى نبرًا، ولكنه يعتبر عاملاً من عوامله، ومع هذا فإنه يعتبر أهم هذه العوامل، وربما كان ذلك لأنَّ النَّبْر يعرف بدرجة الضغط على الصوت أكثر مما يعرف بأي شيء آخر، أو لأنَّ الضغط في صورته (صورة القوة وصورة النغمة) يتسع مجال تطبيقه على النَّبْر أكثر مما يتسع مجال العوامل الأخرى"134. وهناك من الباحثين من يسمي (النَّبْر) (ضغطًا)

129- المصدر نفسه، ج6، ص127. مادة: (نبر)،

130- فن الكلام، كمال بشر، ص255.

131- أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة: أحمد مختار عمر، ص93.

132- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص160.

133- الصوتيات والفونولوجيا، مصطفى حركات، ص34.

134- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص160.

ومنهم إبراهيم أنيس الذي يعرفه بقوله: " والمرء حين ينطق بلغته يميل عادة إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ليجعله بارزاً أوضح في السمع من غيره من مقاطع الكلمة، وهذا الضغط هو الذي نسميه بالنَّبر"135.

ونجد من جهة أخرى محمود السعران يسمي النَّبر ارتكازاً رغم وجود فارق بينهما حيث يقول: " الارتكاز هو درجة قوة النَّفس التي يُنطق بها صوت أو مقطع، وليس كل صوت أو مقطع يُنطق بنفس الدرجة، فدرجة قوة النَّفس في نطق الأصوات والمقاطع المختلفة تتفاوت تفاوتاً بيئياً، إنَّ الصوت أو المقطع الذي ينطق بارتكاز أكبر يتضمن طاقة أعظم نسبياً، يتضمن من أعضاء النطق الخاصة جهداً أعنف في النطق، بالإضافة إلى زيادة قوة النفس، وهكذا فالصوت أو المقطع الذي ينطق بارتكاز أكبر من سواه في كلمة من الكلمات يبرز بروزاً موضوعياً عن سائر الأصوات أو المقاطع التي يجاورها، وعلى العكس من هذا عندما تستعمل في نطق صوت أو مقطع طاقة أقل نسبياً فهو تبعاً لهذا أقل بروزاً مما يجاوره من الأصوات والمقاطع"136.

يبدو أنَّ محمود السعران يدرك تمام الإدراك أنَّ السَّبيل للوضوح السَّمعي للمقاطع الصَّوتية إنما يتحقق ويقوم بتفاوت الضغط على مقطع دون آخر من أجل إعطائه خصوصية ما، ولا ينبغي أن يفهم من وراء هذا أنَّ الوضوح السَّمعي هو النَّبر عينه ذلك أنَّ: "الوضوح السَّمعي عبارة عن أثر يُدرك موضوعياً من قبل السامع ويكون نتيجة التأثير المركب للحرس والطول والنَّبر والتفخيم، ومن ثمَّ فإنَّه يكون من الممكن زيادة هذا الوضوح أو تقليله بواسطة أي واحد من هذه العناصر الصَّوتية السابقة أمَّا النَّبر فهو نشاط ذاتي للمتكلم، قوة قويَّة من النطق تعني عملاً نشطاً لجميع أعضاء النطق، ويكون مصحوباً في العادة بإيماءات واضحة من اليد والرأس أو أجزاء الجسم الأخرى"137.

## 2- النَّبر في اللُّغة العربيَّة بين الإنكار والإثبات:

اختلف الدارسون المحدثون في مسألة: هل للنَّبر وجود عند علماء العرب القدماء؟، وهل كانت اللُّغة العربيَّة تستعمل النَّبر كفونيم (phonem) يقوم بدوره التمييزي فيها فتحكم حينها بأنَّها لغة نبرية أم أنَّ النَّبر في العربيَّة ليس فونيمًا مميزًا، بل هو مجرد تلوين صوتي يُسهِّم في تحسين وجمالية التَّراكيب اللُّغويَّة، فتحكم حينها بأنَّ العربيَّة ليست لغة نبرية؟

135- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص98.

136- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، ص189.

137- أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، فوزي الشايب، ص157-158.

يرى فوزي الشايب أنّ اللُّغويين القدماء أو أغلبهم لم يستخدم النَّبْرَ كمصطلح بالمفهوم الحديث، بل استخدم القدماء مصطلح (الهمز) في الدلالة عليه، فيقول: "والنَّبْرُ بهذا المفهوم شيء جديد على الدراسات اللُّغوية، فلم ينتبه إليه السَّلَفُ، فقد عرفوا النَّبْرَ بمعنى مرادف للهمز"138.

وحين نتأمل ما كتبه أئمة العربية قديماً بدءاً بالخليل بن أحمد الفراهيدي فإننا نجد بأنّ كلام فوزي الشايب له جانب من الصواب بحيث جعل الخليل الهمزة مرادفاً للنَّبْرَ يقول: "وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة فإذا رُفِّه عنها لانت"139، وما ذكره الخليل اتخذه سيبويه تلميذه مذهباً له حيث قال في وصف الهمزة: "واعلم أنّ الهمزة إنّما فَعَلٌ (بمعنى يفعل) بها هذا من لم يخففها لأنّه بُعد مخرجها ولأنّها نَبْرَةٌ في الصَّدْرِ تُخْرَجُ بجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجاً فتقل عليهم ذلك، لأنّه كالتَهْوُوع"140. وذكر ابن السكيت (ت: 244هـ) في إصلاح المنطق قوله: "والنَّبْرُ: مصدر نبرث الحرف نَبْرًا إذا همزته"141، وتحدث المبرد (ت: 285هـ) عن الهمز فقال: "... فَلِتَبَاعُدها من الحروف، وثقل مخرجها وأنها نبرة في الصدر جاز فيها التخفيف..."142.

ويرى بعض المحدثين أنّ تسمية القدماء للنَّبْرِ باسم غير اسمه وهو الهمز أمر مردود وغير مقبول حيث يقول خالد عبد الحلیم العبسي في كتابه (النبر في العربية): "...هناك اختلاف بين مفهوم النبر بمعنى الضغط وبين مفهوم النبر بمعنى الهمز، فقد يوجد مقطع غير منبور وفيه همزة، وقد يوجد مقطع منبور وليس فيه همزة، فليس هناك أية علاقة خاصة بينهما وهو ما يدل على علاقة المغايرة التامة بينهما"143.

فمن هذه الأقوال المتقدمة يتبين أنّ الظاهرة وردت في كتب التراث اللُّغوي العربي، ولكن المحدثين أو بعضهم على الأقل ينكر معرفة القدماء للنَّبْرَ بسبب تسميتهم له بالهمز، ويتأكد هذا الإنكار فيما ذهب إليه إبراهيم أنيس حيث قال: "وليس لدينا من دليل يهديننا إلى موضع النَّبْرَ في اللُّغة العربية كما يُنطَقُ بها في العصور الإسلامية الأولى، إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين القدماء، أما كما يُنطَقُ بها القراء الآن في مصر، فلها قانون تخضع له، ولا تكاد تشدُّ عنه"144. فإبراهيم أنيس يؤكد أنّ العرب لم تكن لهم دراية بالنَّبْرَ وعلى فرض أنّها عرفت، فلا يوجد قانون يحكمه أو قاعدة تضبطه شأن ما حصل في العصر الحديث.

138- المرجع السابق ص158.

139- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ج1، ص37.

140- الكتاب، سيبويه، ج3، ص548.

141- إصلاح المنطق، ابن السكيت، ج2، ص16.

142- المقتضب، المبرد، تح: عبد الخالق عزيمة، ج1، ص151.

143- النبر في العربية، خالد عبد الحلیم العبسي، ص137.

144- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص99.

ومن القائلين بوجود الظاهرة عند العرب القدماء **تمام حسان** ولكنه يقصر وجودها على لهجات العوام وليس في اللغة العربية الفصحى، يقول: "ولا يفوتني هنا أن أشير إلى أن دراسة النبر ودراسة التنغيم في العربية الفصحى يتطلب شيئاً من المجازفة ذلك لأن العربية الفصحى لم تعرف هذه الدراسة في قديمها ولم يسجل لنا القدماء شيئاً عن هاتين الناحيتين، وأغلب الظن أن ما نُسبُ للعربية الفصحى في هذا المقام إنما يقع تحت نفوذ لهجاتها العامية؛ لأن كل متكلم بالعربية الفصحى في أيامنا هذه يفرض عليها من عاداته النطقية الشيء الكبير"145.

وقد سلك مسلك تمام حسان المستشرق الألماني برجستراسر في قوله: "...ومما يتضح من اللغة نفسها، ومن وزن شعرها أن الضغط لم يوجد فيها، أو لم يكد يوجد... وإذا نظرنا إلى اللهجات العربية الدارجة وجدنا فيها كلها - فيما أعرف - الضغط وهو في بعضها قوي وفي بعضها متوسط..."146.

ومهما يكن من اختلاف بين الدارسين فإن ظاهرة النبر في العربية وإن لم تعرف بهذا المصطلح، فإن علماءنا أدركوا وأحسوا بوقوعها في العربية سواء أكان ذلك في الفصحى أو في الاستعمال العامي للغة.

### 3- أنواع النبر في العربية:

النبر في العربية أنواع ثلاثة<sup>147</sup> وهي: نبر الكلمة، ونبر الجملة، والنبر التقابلي.

أ - نبر الكلمة: وهي النبرة الرئيسة التي تأخذها الكلمة حالة إفرادها وتكون مسبوقة بسكون، ويخضع نبر الكلمة لقوانين وضوابط هي على النحو الآتي:

\* إذا كانت الكلمة ذات مقطع واحد، تأخذ نواة المقطع نبرة رئيسة في مثل: (عَنْ) و(مَنْ) و(لَنْ)...

\* إذا كانت الكلمة ذات مقطعين قصيرين أو ثلاثة مقاطع قصيرة تكون النبرة الرئيسة على المقطع الأول في نحو: (دَرَسَ) و(جَلَسَ) و(كَتَبَ)... وتأخذ المقاطع الأخرى نبرات ضعيفة.

\* إذا كانت الكلمة ذات مقطعين أو ثلاثة مقاطع طويلة تكون النبرة الرئيسة على المقطع الأخير، وتأخذ بقية المقاطع الأخرى نبرات ثانوية في مثل: (طاووسٌ) و(بأفون) و(ناسون)...

\* إذا كانت الكلمة ذات مقطعين أو ثلاثة متنوعة بمعنى (قصيرة أو طويلة) تكون النبرة الرئيسة على آخر مقطع طويل وتأخذ بقية المقاطع نبرة ثانوية إذا كانت طويلة أو نبرة ضعيفة إذا كانت قصيرة في نحو: (كَاتَبَ) و(كِتَابٌ) و(نَائِمٌ) و(حَائِمٌ)...

145- مناهج البحث اللغوي، تمام حسان، ص163-164.

146- التطور النحوي للغة العربية، برجستراسر، تح: رمضان عبد التواب، ص46.

147- الأصوات العربية، محمد علي الخولي، ص166-167.

\* إذا كانت الكلمة ذات أربعة مقاطع، فإن النبرة الرئيسة تكون للمقطع الثاني في نحو: (مَدْرَسَةٌ) و(طَاوِلَةٌ)... ويستثنى من ذلك حين يكون المقطع الثالث أو الرابع طويلًا فإنه يأخذ النبرة الرئيسة في نحو: (بِنَايَات) و(جِكَايَات).

\* إذا كانت الكلمة ذات خمسة مقاطع فالنبرة الرئيسة تقع على المقطع الثالث في نحو: (مُتَقَدِّمٌ) و(مُتَعَلِّمٌ) ويستثنى من ذلك حين يكون المقطع الرابع أو الخامس طويلًا فإن النبرة الرئيسة تكون له في نحو: (مَدْرَسَتُنَا) و(كِتَابُنَا) و(مُعَلِّمُنَا)...

\* إذا كانت الكلمة ذات ستة مقاطع أو أكثر، فإن النبرة الرئيسة تكون في آخر مقطع طويل في نحو: (استقبالاتهن).

**ب- نبر الجملة:** ويقصد به توزيع درجات النبر على أجزاء الجملة تبعًا لأهميتها عند المتكلم، وتبعًا لطبيعة الجملة ونوعها بحيث يكون لكل جملة قالبها النبري الخاص بها، وهذا القالب يختلف من لغة إلى أخرى.<sup>148</sup> وفي هذه الحالة تتنازل الكلمات عن نبراتها الرئيسة التي كانت تأخذها وهي منفردة لصالح الجملة، فتأخذ الجملة كلها نبرة رئيسة واحدة إذا قيلت بوحدة صوتية واحدة نحو: (كتب الطالب الدرس) ففي هذه الحالة تكون الكلمة الأخيرة هي موضع النبرة الرئيسة.

**ج- النبر التقابلي:** ويمكن توضيحه من خلال ضرب المثال الآتي: (أنجز الطالب مذكرته في الفصل الأول)، وهنا يمكن أن نعطي النبرة الرئيسة للكلمة الأولى (أنجز) لتوكيد فعل الإنجاز، وإن كان النبر للفاعل (الطالب)، فإن النبرة الرئيسة تكون له فيؤكد من قام بفعل الإنجاز، وإن كان النبر على (المذكورة)، فيكون التوكيد على أنَّ المذكرة هي المنجزة وإن وقع النبر على الزمان (الفصل الأول) فهذا يعني توكيده.

وهكذا وفي ختام بيان أنواع النبر يمكن القول أنَّ النبر الواضح والبارز هو الذي يتسلط على الكلمة أمَّا نبر الجملة أو النبر التقابلي فهو نبر لا تحده قواعد معينة وإن حاول بعض الدارسين صناعتها.<sup>149</sup>

كما أنهم أشاروا إلى درجات النبر مستنديين في ذلك إلى مبدأ الوضوح والبروز والارتكاز ثم ميزوا بين هذه الأنواع بعلامات وضعوها فوق نواة المقطع المنبور على النحو الآتي:

\_\_ النبر الرئيس: رمزوا له بعلامة: (^) فوق المقطع المنبور.

\_\_ النبر الوسط: رمزوا له بعلامة: (-) فوق المقطع المنبور.

\_\_ النبر الضعيف: رمزوا له بعلامة: (w) فوق المقطع المنبور.

148- علم الصوتيات، د. عبد العزيز أحمد علام، ود. عبد الله ربيع محمود، ص333.

149- ينظر مثلاً: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص173. والأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص175.

مستندين في هذا التمييز بين أنواع النبر إلى ثلاثة علامات وهي:

-زيادة شدة الصوت. -ارتفاع نغمة الصوت (عند السمع). -امتداد مدته الإنتاجية.<sup>150</sup>

ويذكر لنا الباحث نور الدين عصام<sup>151</sup> درجات النبر في العربية فيجعلها ثلاث درجات كما يأتي:

\***النبر القوي** (الأولي) نحو الفعل (كَتَبَ) بحيث ينطق المقطع القصير (رد) بارتكاز أكبر من المقطعين الآخرين اللذين يشكلان الكلمة، وكذلك (كَاتَبَ) بحيث ينطق المقطع الطويل (كا) بارتكاز أكبر مقارنة مع غيره من المقطعين الآخرين.

\***النبر الوسيط** (الثانوي) في نحو كلمة (مُسْتَقِيم) في النطق بالمقطع (مُس).

\***النبر الضعيف** في نحو كلمة (كَتَبَ) في مقطع (ب)، وهكذا.

#### 4 - قواعد النبر في اللغة العربية:

حاول كثير من الباحثين العرب المحدثين التعميد لظاهرة النبر في العربية، ومن هؤلاء المجتهدين تمام حسان وإبراهيم أنيس، متخذين من أداء قراء القرآن الكريم نموذجاً للتعديد للعربية القرآنية، وتعد مقارنتهما المثال الذي اعتمده جل الدارسين العرب أمثال رمضان عبد التواب وأحمد مختار عمر وغيرهما، ونكتفي ههنا بالوقوف مع تعديد تمام حسان نموذجاً.

- انطلق تمام حسان - كما تقدم - في وضع قواعد النبر في العربية الفصحى من قراء عصره المصريين وقد أشار إلى هذا في قوله: "... هي نظام النبر في صرف اللغة العربية الفصحى كما يلاحظها المرء عند قراء القرآن، وهي الشكل الوحيد للفصحى الذي يشتمل على عنصر التواتر المعتمد"<sup>152</sup>. وقد صاغ تمام حسان نموذج التعديد<sup>153</sup> على النحو الآتي:

#### أ- مواضع النبر الأولي (الرئيسي):

**القاعدة الأولى:** يقع النبر على المقطع الأخير في الكلمة إذا كان هذا المقطع طويلاً أي على صورة (ص ح ص) أو (ص ح ص ص) في نحو: (اسْتَقَالَ) و(اسْتَقَلَّ) فإذا كانت الكلمة ذات مقطع وحيد وقع عليه النبر أيًا كانت كميته مثل: (ق) و(قُم) و(مَا) و(قَالَ) و(قُل).

**القاعدة الثانية:** يقع النبر على المقطع الذي قبل الآخر في الحالات الآتية:

150 - ينظر: علم اللسانيات الحديثة، نظم التحكم وقواعد البيانات، د. عبد القادر عبد الجليل، ص371.

151 - علم وظائف الأصوات اللغوية -الفونولوجيا-، نور الدين عصام، ص110-111.

152 - اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص304-305.

153 - المرجع نفسه، ص172-174.

\* إذا كان ما قبل الآخر متوسط والمقطع الأخير:

أ- قصيرا نحو: (أخرجت) و (جدارٌ).

ب- متوسطا نحو: (قَاتَل) و (مَعْلَم) و (مَقَاتِل) و (اسْتَوْتَق). (سكون الأخير)

\* إذا كان ما قبل الآخر قصيرا في إحدى الحالتين الآتيتين:

أ- بدئت به الكلمة نحو: (كَتَب) و (حَسِب) و (صَوَّر) و (فَقَا).

ب- سبقه المقطع الأقصر ذو الحرف الوحيد الساكن الذي يُتَوَصَّل إلى النطق به بهمزة الوصل نحو: (انجس)

و (انطلق) و (ابتغ) و (ارعوا) و (امضيا)...

\* إذا كان ما قبل الآخر طويلا ولم يكن الأخير طويلا آخر، نحو: (أُتْحَاجُوِي) و (دُوِيْبَة).

القاعدة الثالثة: يقع النبر على المقطع الثالث من الآخر إذا كان:

أ- قصير متلو بقصيرين نحو: (عَلِمَك) و (لَنْ يَصِل) و (أَكْرَمَك)...

ب- قصير متلو بقصير ومتوسط نحو: (عَلِمَك) و (لَمْ يَصِل) و (أَكْرَمَك)...

ج- متوسط متلو بقصيرين نحو: (بَيْتُكَ) و (لَمْ يَنْتَه) و (أُخْرِج)...

د- متوسط متلو بقصير ومتوسط نحو: (مُصْطَفَى) و (نَظْرَة) و (ابْتِسَامَة) و (أُخْرِجُوا) و (بَيْنُكُمْ).

القاعدة الرابعة: يقع النبر على المقطع الرابع من الآخر إذا كان الأخير متوسطا، والرابع من الآخر قصيرا وبينهما

قصيران نحو: (بَقْرَة)، (عَجَلَة)، (وَرْنَة)، (وَسْعَة)، (كَلِمَة)، (ضَرْبَة)، (نَكْرَهُمْ)... إلخ، هذا ويغلب في المقطع

الأخير في هذه الحالة أن يكون تنوينا أو اضمارا أو اشباعا.

ملاحظة: لا يقع النبر على مقطع يسبق هذا الرابع فيما يتم العد من الأخير.

#### ب - مواضع النبر الثانوي:

يبدأ النبر الثانوي أين ينتهي النبر الأولي، ويجرى العد بصورة عكسية من اليسار إلى اليمين، وفي هذا يقول تمام

حسان: "وكما احتسبنا النبر الأولي من نهاية الكلمة متجهين بقواعده صوب بدايتها، سيكون حسابنا للنبر

الثانوي من النقطة التي وقع عليها النبر الأولي متجهين الاتجاه نفسه إلى بداية الكلمة في اتجاه معاكس لجرى ترتيب

الكلمة في الحالتين" 154. وفيما يلي قواعد النبر الثانوي 155:

القاعدة الأولى: يقع النبر الثانوي على المقطع السابق للنبر الأولي مباشرة إذا كان هذا المقطع السابق طويلا (ص

م ص) أو (ص ح ص ص) نحو: (الصَّافَات) و (الضَّالِّين) و (أُتْحَاجُوِي).

154 - ينظر: مناهج البحث اللغوي، تمام حسان، ص 162-163، واللغة العربية معناها مبناه، تمام حسان، ص 174-175.

155 - اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 174-175.

القاعدة الثانية: يقع النبر الثانوي على المقطع الثاني قبل النبر الأوّلي إذا كان هذا المقطع والذي يليه، فيقع بينه وبين النبر الأوّلي يكونان أحد النماذج الآتية:

\* متوسط + متوسط، نحو: (مُسْتَبِقِينَ) و(يَسْتَحْفُونَ) و(عَاشَرْنَاَهُمْ).

\* متوسط + قصير، نحو: (مُسْتَقِيمٌ) و(مُسْتَعِدَّةٌ) و(قَاتِلُوهُمْ).

\* طويل + قصير، نحو: (مُدْهَامَتَان).

القاعدة الثالثة: يقع النبر على المقطع الثالث قبل النبر الأوّلي إذا كان هذا المقطع المذكور يُكوّن مع اللذين يليانه فيقعان بينه وبين النبر الأوّلي أحد النماذج الآتية:

\* متوسط + قصير + متوسط، نحو: (يَسْتَقِيمُونَ) و(مُسْتَجِيبُونَ) و(مُسْتَطِيلَان).

\* متوسط + قصير + قصير، نحو: (مُنْطَلِقُونَ) و(يَسْتَبِقُونَ) و(مُحْتَرَمُونَ).

\* قصير + قصير + قصير، نحو: (بَقَرَتَان) و(كَلِمَتَان) و(ضَرَبْنَاَهُ).

ولا يقع النبر على سابق ما ذكرناه.

ومما تقدم يتضح أنّ النبر الثانوي لا يقع بعد النبر الأوّلي بل يسبقه دائماً، كما أنه قد يقع متصلاً بالنبر الأوّلي مباشرة دون وجود أي فاصل بينهما أو منفصلاً عنه بمقطع وحيد أو مقطعين اثنين كأقصى تقدير.

## الدرس السادس: الأبنية والأوزان

### تمهيد:

من السمات البارزة التي تميز اللغة العربية ثراؤها اللفظي الذي يميز المعجم ويضمن له الروافد التي تمده باستمرار بوسائل تنمية اللغة، وتضمن استمرار حيويتها وحركيتها.

ومن الظواهر التي تعمل على إثراء اللغة في جانبها البنائي الصرفي ما اصطلح عليه بـ(الأبنية والأوزان) المتعددة في كل باب من أبواب العربية، وهذا ما سنعمل على توضيحه وبيانه.

### 1- مفهوم الأبنية:

#### أ- لغة:

قال ابن فارس: "(بنى) الباء والنون والياء أصل واحد وهو بناء الشيء بضم بعضه إلى بعض... ويقال: بُنِيَةٌ وبُنِيٌّ، وبُنِيَّةٌ بكسر الباء كما يقال: هِرْزِيَّةٌ وجرْزِيٌّ، ومَشِيَّةٌ، وحَشِيٌّ..."<sup>156</sup>

<sup>156</sup> - مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج1، ص302-303. مادة: (بنى)،

فلفظ (الأبنية) جمع مفردة: بُنْيَةٌ وَبُنْيَةٌ، وتحمل معنى ضم الشيء إلى بعضه البعض. وفي اللسان: " والبُنْيُ: نقيض الهدم... يقال: بُنْيَةٌ وَبُنْيٌ وَبُنْيَةٌ وَبُنْيٌ بكسر الباء مقصورة مثل: جَزِيَةٌ وَجَزَى<sup>157</sup>. فالبناء نقيض الهدم، وهو التركيب.

## ب- اصطلاحاً:

الأبنية في علم الصرف هي: " عدة الحروف مع الهيئة التي تكون عليها"<sup>158</sup>. ويرى اللبدي أن بُنْيَةَ الكلمة وبنائها ومبناها كلها ألفاظ مترادفة وذات دلالة واحدة<sup>159</sup>. فبنية الفعل (نَزَلَ) تعني حروفه التي يتكون منها والهيئة التي تنتظم هذه الحروف من حركة أو سكون.

## 2- مفهوم الأوزان:

### أ- لغة:

الأوزان: جمع ميزان ومفردها ميزان من الفعل وزن يوزن على وزن (مفعال) مِوزَان، ثم انقلبت الواو ياءً لمناسبة الكسر قبلها، وتعني المثقال، قال الجوهري(ت: 393 هـ) في مادة وزن: " الميزان معروف، وأصله مِوزَان، انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها... ووزنت الشيء وزناً وَزَنَةً... قال تعالى ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٣﴾ [المطففين: 3]<sup>160</sup>، وثبت في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ٤٧﴾ [الأنبياء: 47]، حيث جاء جمع (وزن) على (مفاعيل) أي: موازين، وقوله أيضاً: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوْزِنُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوْزِنُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف: 8-9] وفي اللسان: "ورأيت العرب يسمون الأوزان التي يوزن بها التمر وغيره

المُسَوَّاة من الحجارة والحديد الموازين، واحدها ميزان، وهي المثاقيل واحدها مثقال، ويقال للآلة التي يوزن بها الأشياء ميزان أيضاً؟"<sup>161</sup> وجاء في مقاييس اللغة لابن فارس قوله: "(وَزَن) الواو والزاي والنون بناء يدل على تعديل واستقامة، ووزنت الشيء وَزَنًا، وَالزَيْتَةَ: قَدَرُ وَزَنِ الشَّيْءِ وَالأَصْلُ: وَزَنَةٌ..."<sup>162</sup>. فالأوزان هي المثاقيل وهي بناء يدل على تعديل واستقامة.

## ب- الأوزان اصطلاحاً (في علم الصرف):

157 - لسان العرب، ابن منظور، ج 1، ص 258. مادة: (بني)،

158 - معجم المصطلحات النحوية والصرفية، د. محمد سمير نجيب اللبدي، ص 27.

159 - المرجع نفسه، ص 27.

160 - تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، ص 1243، مادة: (وزن).

161 - لسان العرب، ابن منظور، ج 6، ص 436، مادة: (وزن)

162 - مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج 6، ص 107، مادة: (وزن).

ويطلق عليها الأبنية أيضا وهي قوالب تأتي على هيئتها وقياسها المادة اللغوية، تقول خديجة الحديشي في توضيح دلالة الميزان (الصرفي) في كتابها "أبنية الصرف في كتاب سيبويه": "ولما كان نظر علماء التصريف إلى الكلمة من جهة حروفها التي تتألف منها ليعرفوا أصالتها وزيادتها، ومن جهة هيئة هذه الحروف وضبطها على أية صورة كانت اضطربهم ذلك إلى اتخاذ معيار من الحروف سموه بالميزان"<sup>163</sup>، فالميزان أو الوزن عبارة عن قالب من الحروف يُتخذ لمعرفة الأصيل والزائد، وضبط صورة الكلمات، وإذا كان الصائغ يصوغ من الأصل الواحد أشياء مختلفة، والصَّرْفِي يُجَوِّل المادة الواحدة إلى صور مختلفة، لذلك احتاج الصَّرْفِي في عمله إلى ميزان يعرف به عدد حروف الكلمة وترتيبها، وما فيها من أصول وزوائد وحركات وسكنات وما طرأ عليها من تغيير، كما احتاج الصائغ إلى ميزان ليعرف به مقدار ما يصوغه.

واتخذ الصرفيون<sup>164</sup> ميزانا صرفيا مؤلفا من ثلاثة أحرف هي الأصول، لأن الكلمات الثلاثية الأصول أكثر استعمالا من غيرها في الكلام ولأنهم لو جعلوه رباعيا أو خماسيا لاضطروا إلى حذف حرف أو اثنين عند وزن كلمة رباعية أو ثلاثية، ولذلك آثروا أن يجعلوا الميزان بثلاثة أحرف، وأن يزيدوا على ذلك إذا وزنوا رباعيا أو خماسيا، ورأوا أن ذلك خير من أن يجعلوه على خمسة أحرف ثم ينقصوا منه إذا وزنوا رباعيا أو ثلاثيا والزيادة أسهل من الحذف، وجعلوا (ف.ع.ل) ميزانا لهم.

### 3- أصل الميزان الصرفي وزن (فعل):

تقدم القول بأن (ف.ع.ل) هي الميزان الصرفي الأصل الذي يقيس عليه الصرفيون مواد الكلمات، وجعلوا لذلك الحرف المقابل للفاء وهو الحرف الأول من الكلمة المجردة (فاء الكلمة)، والحرف المقابل للعين (عين الكلمة)، والحرف المقابل للام (لام الكلمة) ...

والتزموا في الميزان أن تقابل أحرفه بالحركات والسكنات التي جاءت عليها أحرف الكلمة الموزونة نفسها، ويتشكل بالشكل الذي عليه هذه الكلمة من تقديم أو تأخير أو حذف أو غير ذلك، ففي (كَتَبَ) مثلا تكون (الكاف) فاء الكلمة، و(التاء) عينها، و(الباء) لامها، فوزنها (فَعَلَ)، ولما كانت أحرف (كَتَبَ) الثلاثية محركة بالفتح حركت أحرف الميزان الثلاثة بالفتح أيضا.

أما لماذا سميت (فَعَلَ) وما تغير منها تبعا للكلمة (وزنا) أو (زنة)، فذلك راجع لأن لفظ (فعل) صيغ لبيان الهيئة المشتركة أو الوزن المشترك بين الكلمات بالصفة التي يقال لها الوزن، فقولنا (ضَرَبَ) على وزن (فَعَلَ)، و(نَصَرَ) على الوزن نفسه يدل على أن (ضرب) و(نصر) مشتركتان في الهيئة أو المقدار الذي هو عدد الحروف والحركات

<sup>163</sup> - أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديشي، ص 87.

<sup>164</sup> - المرجع نفسه ص 87-88

في (فَعَلَ)، أما إذا قلنا إن وزن (فَعَّلَ): (فَعَّلَ)، ووزن (فَاعَّلَ): (فَاعَّلَ) فقد بينا أن بين اللفظتين اختلافًا بزيادة إحداهما على الأخرى.

فلما كان المراد من صوغ (فَعَّلَ) الموزون به مجرد الوزن سميت (وزنا) و (زنة). وإنما اختير لفظ (فَعَّلَ) لهذا الغرض من سائر الألفاظ، لأن القصد من الوزن معرفة الأصول والزوائد والتغيرات التي تحدث في الكلمة، وذلك إنما يكون في الفعل وما جرى عليه من اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، ونحوها. فأما الاسم الجامد ك(رجل) و(فرس) فشأنه الثبات والجمود.

#### 4- عدد الأبنية في اللغة العربية:

منذ بدابة تدوين اللغة والنحو شرع علماء العربية في تدوين ما له صلة بالأبنية والأوزان، وكان سيبويه قد أحصى منها ثلاثمائة وثمانية (308) مثالًا ما عدا أوزان الأفعال، وزاد ابن السراج (ت: 316هـ) على ما أورده سيبويه اثنين وعشرين (22) بناءً. ثم زاد عليه أبو عمرو الجرمي (ت: 225هـ) صيغًا قليلة، ثم أضاف ابن خالويه (ت: 370هـ) أمثلة يسيرة<sup>165</sup>.

ويرى صاحب المزهري بعد ذلك عن ابن القطاع (ت: 515هـ) نفسه أنه جمع ما تفرق في تأليف الأئمة فاتتهى وسعه بعد البحث والاجتهاد إلى ألف مثال ومائتي مثال، وعشرة أمثلة (1210).<sup>166</sup> كما نقل السيوطي في القسم الذي خصه للأبنية بحثًا واسعًا مفصلاً، ولكنه يحتاج إلى تصنيف وتنسيق لما فيه من المكررات بسبب تعدد المصادر التي نقل عنها السيوطي<sup>167</sup>. ويرى محمد المبارك في كتابه: "فقه اللغة وخصائص العربية" أن الأبنية التي أحصاها السيوطي في كتابه المزهري يمكن تقسيمها إلى أقسام ثلاثة على النحو الآتي:<sup>168</sup>

**الأول:** الأبنية كثيرة الاستعمال كأبنية الأفعال المعروفة وتصاريفها، والمشتقات السبعة والجموع القياسية السالمة منها وغير السالمة، وهذه الأبنية مطردة قياسية ويمكن أن نقول عنها أنها (صيغ حية).

**الثاني:** الأبنية قليلة الاستعمال، وهي التي ورد على وزنها عدد من الألفاظ يمكن عدّه وإحصاؤه، ولكنها وقفت غير هذا الحد المنقول عن العرب دون زيادة فيها وذلك مثل: (فَعَالِيَةٌ: رفاهية، علانية، سواسية... إلخ) و(فَعِيلٌ: سَكَّير، صَدِّيق، غَرِيد، شَرِير) و(أَفْعُولَةٌ: أعجوبة، أسطورة، أهدوثة... إلخ)، ورأينا في هذا النوع من الأبنية أنه

<sup>165</sup> - دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، ص 330-331.

<sup>166</sup> - المرجع السابق، ص 331.

<sup>167</sup> - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 128. وينظر: المزهري في علوم اللغة للسيوطي (النوع الأربعون: معرفة الأشباه والنظائر)، ج2، من

ص 03 إلى ص 288.

<sup>168</sup> - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 131-132.

يحتمل وجهين: أحدهما: أن هذه الأبنية كانت حية ثم جمدت ووقفت فيها الحياة، وبقيت الكلمات التي ولدتها مستمرة الاستعمال، ولكن الصيغة التي ولدتها عقيمت.

وثاني الاحتمالين أنّها صيغ جديدة حديثة المولد ولكنها لم تر النور حتى هاجمها النحاة واللغويون حين تدوين اللّغة والنحو وضبطوها على تلك الحال فحالوا بينها وبين المسير ووقفوا دون نموها على اعتبار أنّهم وجدوها عند أصحابها العرب هكذا محدودة العدد، ولم يراعوا أنّها كانت في بدء نموها وأول نشأتها، وأن اللّغة لو استمرت في حضن أهلها ولم تنتقل إلى أهل الصنعة من النحاة واللغويين لنمت وترعرت.

**الثالث:** من أنواع الأبنية والصيغ، هو النادر في الاستعمال كالصيغ التي جاء على وزنها كلمة أو بضع كلمات، وهو ما أسماه المتقدمون نوادر الأبنية، وأفرد له ابن قتيبة (ت: 276هـ) في أدب الكاتب<sup>169</sup>، والسيوطي في المزهري<sup>170</sup> فصولا خاصة، ومثال ذلك وزن (فَعَلُوتٌ) وجاء منها (ملكوت) و(جبروت) و(رحموت) و(رهبوت)، و(فُعُول) منها (سُبُوح) و(قُدُوس)، و(فَاعِيل) ومنها (قَابِيل) و(هابيل) و(آمِين)، و(فِعِيل) ومنها (عِشِير) و(غَرِين)، و(فِعِل) ولم يرد منها إلا (إِبِل) و(إِطِل) وهو (الْحَصِيرُ) و(إِبِد) لغة في الأبد وهما متروكتان و (فِعْلِي) ومنها (حِصِيصِي) وبضع ألفاظ أخرى. وخلاصة القول فإن الأبنية من هذا النوع يمكن أن نسميها أبنية مَيْتة، وأن نعتبر الألفاظ على وزنها من رواسب الماضي البعيد.

## 5- تصنيف الصيغ والأوزان في العربية:

إن المتتبع لمادة الصيغ وأوزانها في التراث الصربي يلحظ أن اللغويين العرب كانوا قد قسموا الأبنية إلى قسمين: أحدهما خصصوه للأسماء والآخر للأفعال، ولعل أول ما تنبهوا إليه أن أوزان الأفعال يمكن ضبطها وحصرها فهي لا تتجاوز بضعة وعشرين بناءً، وهي المعروفة في دراسة الفعل الثلاثي والرباعي مجردين ومزيدين بمعانيهما الداخلة تحت كل قالب من قوالب هذه الأوزان. يقول محمد المبارك: "ولا شك أن أبنية الأفعال محدودة واضحة المعالم تبلغ بضعا وعشرين بناءً وقد زاد بعضهم فيها أوزانا ردها آخرون إلى الأوزان المعروفة وذلك مثل: (تَفَوَعَل) = (تَحَوَّرَب)، و(تَفِيَعَل) = (تَشِيَطَن)، و(تَمَفَعَل) = (تَمَسْكَن)، و(تَفَعَلِي) = (تَقَلَسِي)، و(تَفَعَلَل) = (تَقَلَسَس)، وجمهور الصرفيين جزوا على اعتبارها جميعا من باب (تَفَعَلَل)..."<sup>171</sup>. وأمّا الأسماء فإنّ من العسير دخولها تحت حصر، ولكن يمكن

169 - أدب الكاتب، ابن قتيبة، تج: محمد محي الدين عبد الحميد، ص 349 وما بعده.

170 - المزهري في علوم اللغة، السيوطي، ج2، ص 52 وما بعدها.

171 - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 133.

التَّمثِيل لها فحسب. ولعله من المفيد القول إن بين أوزان الأفعال والأسماء في العربية أوزان مشتركة يمكن ملاحظته على النحو الآتي: 172

الأوزان	فَعَل	فَعِل	أَفْعَل	فَعَلَل	فَاعَل
الأسماء	جَمَلٌ	حَدِرٌ	أَسْوَدٌ أَعْلَمٌ	جَعَفَرٌ	حَاتَمٌ
الأفعال	كَتَبَ	عَلِمَ	أَفَدَمَ أَعْلَمَ	دَخَرَجَ	سَابَقَ

ويلاحظ في الجدول السابق اشتراك الأسماء مع الأفعال في الوزن، وإنما يتميز أحدهما عن الآخر بحركة الإعراب في آخره. كما يمكن التَّساؤل عن علة هذا الاشتراك، هل هو عائد إلى عهد من عهود اللغة لم يمكن التمييز فيه حاصل بين الأسماء والأفعال بشكل واضح أم أنه مرتبط بتعليل آخر.

إن الإقرار بتخصيص كل من الأسماء والأفعال بأوزان خاصة دليل قوي على أن اللغة عرفت ارتقاء ودقة في التعبير اكتسبته شيئاً فشيئاً، ولولا هذا التخصيص لوقع الالتباس في التمييز بين الأسماء والأفعال ذات الصيغة أو الوزن المشترك، ويعضد هذا الكلام ما حدث للغة العربية نفسها فيما ترويه كتب التراجم والأخبار والسير عن قصة أبي الأسود الدؤلي (ت: 69هـ) مع ابنته<sup>173</sup> حينما قالت له ذات مرة: "ما أشدُّ الحِرَّ، فقال أبوها: القيظ، وهو ما نحن فيه يا بنية، جواباً عن كلامها لأنه استفهام فتحبَّرت وظهر لها خطؤها، فعلم أبو الأسود أنها أرادت التعجب، فقال لها: قولي يا بنية: ما أشدُّ الحِرَّ". فهذه القصة تحمل معنى عدم التمييز بين (أشدُّ) التي جاءت في سياق الاستفهام و(أشدُّ) التي جاءت للتعجب.

ويمكن أن نصنف الأبنية من جهة دلالتها على المفرد أو الجمع إلى أبنية خاصة بالجمع وذلك مثل (فواعل) و(فعائل) و(فعالي) و(فعاعل) و(مفاعيل)، وأبنية خاصة بالمفرد وهي أكثر الأبنية المسرودة في كتب اللغة مما سوى الأبنية التي نص على كونها جموعاً<sup>174</sup>، وأبنية مشتركة بين الجمع والمفرد مثل:

172 - المرجع نفسه، ص 134.

173 - ينظر: القصة في طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، ص 21.

174 - ينظر: المزهري في علوم اللغة، السيوطي، ج 2، ص 72\_24.

- (فِعَال) = فقد تدل على المفرد ك(كتاب) و(لباس) و(جهاد)، وقد تدل على الجمع ك(رجال) و(كِرَام).

- (فُعَل) = (أُسَدُّ) و(فُئَل).

- (فِعْلَةٌ) = (جِلْسَةٌ) و(صَبِيَّةٌ).<sup>175</sup>

وأورد علماء الصرف وفقهاء اللغة أبنية الجموع وجعلوها أقساما (سالمة وغير سالمة) و(جموع قلة وجموع كثرة)، كما أوردوا الألفاظ التي شذت عن القاعدة، كأن يكون البناء للمفرد، وتأتي منه ألفاظ تدل على الجمع وذلك كبناء (فَعَل) فقد ورد منها ألفاظ مخصوصة **جمعا لفاعل** مثل: (حَرَسَ، وَخَوَلَ، وَسَلَفَ، وَخَدَمَ، هَمَلَ)<sup>176</sup> أو أن يكون البناء للجمع وتأتي منه ألفاظ تدل على المفرد كوزن (فُعَل) فقد جاء منه ألفاظ ممدودة ليست جمعا مثل: (حَوَّلَ، فُئَلَبَ، حُئَلَبَ، دُمَلَّ، صُلَّبَ، سُلِّمَ...)<sup>177</sup>.

كما نبه علماء اللغة كذلك إلى ما كان خاصا من الأبنية بالأسماء، وما كان خاصا بالصفات وما استثني من ذلك، فوزن (فَعَل) مثلا لم يأت إلا صفة ك(حَذِرَ) و(دَرِدَ)<sup>178</sup>، ووزن (فُعَال) للاسم ك(عُرَابِ)، والصفة ك(شُجَاعِ)، ووزن (مَفْعَل) للأسماء ك(مسجد) وهو قليل في الصفات، وفي الصحاح ليس في كلام العرب (فِعْلِي) صفة، وإنما هو من بناء الأسماء ك(الشِّعْرَى)<sup>179</sup>، وهكذا نجد علماءنا يسعون دائما إلى محاولة ضبط الأوزان والصيغ.

## 6- نشأة الأبنية والأوزان: كشفت لنا الدراسة السابقة أن أبنية الألفاظ وأوزانها في العربية تقدم صورة واضحة

جلية كما كانت عليه هذه الأوزان والصيغ في عصورها المعروفة ونصوصها المتداولة القديمة منها والحديثة، ويمكن أن نرصد مما تقدم من عرض ودراسة الملاحظات الآتية:<sup>180</sup>

أ - إنَّ اللغة العربيَّة تتسم بعدد كبير من الصيغ أو الأوزان المتنوعة في أشكالها وهيئات تركيبها وفي دلالاتها ومعانيها المتقاربة المتشابهة والمتباعدة المختلفة وعلى مثالها وهيئاتها وردت جميع ألفاظ العربية الدالة على المعاني أي كل ما سوى الأدوات النحوية والروابط اللفظية.

ب - تعدد معاني الأبنية، فقد يدل الوزن الواحد في العربية على معانٍ متعددة فوزن (فَعِيل) يدل على الصفة الثابتة في نحو: (كريم، وشريف، وخبير)، وعلى الصوت في نحو: (صهيل، وعويل، وزئير)، ويدل وزن (فِعَال) على

<sup>175</sup> - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 134-135.

<sup>176</sup> - ينظر: المرجع نفسه ص 134، والمزهر في علوم اللغة، السيوطي، ج 2، ص 115.

<sup>177</sup> - المزهر في علوم اللغة للسيوطي، ج 2، ص 117، وينظر: فقه اللغة وخصائص العربية لمحمد المبارك، ص 135.

<sup>178</sup> - المزهر في علوم اللغة للسيوطي، ج 2، ص 5، وينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 136.

<sup>179</sup> - المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ج 2، ص 53 و 67.

<sup>180</sup> - ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 137 وما بعدها.

مصدر (فاعل) (يفاعل) ك (قتال، وسباق)، وعلى أدوات وآلات في مثل: (إناء، وحزام)، وعلى جمع (فَعِيل) أحياناً ك (كِرَام، ولثام، وطوال).

ويدل وزن (أفعل) من الأفعال على متعدي (فَعَل) اللازم ك (أَخْرَج) وعلى وجدان الشيء ك (أحمده) وجمده حميداً، وعلى بلوغ الشيء ك (أحصد الزرع) بلغ أوان حِصَادِهِ وعلى غير ذلك من المعان الكثيرة، التي عددها ابن قتيبة في أدب الكاتب<sup>181</sup> وغيره.

ج - تعدد الصيغ للمعنى الواحد<sup>182</sup>، حيث يدل على المعنى الواحد اوزان متعددة، فمبالغة اسم الفاعل تدل عليها صيغة (فَعَّال) و(مَفْعَال) و(فَعُول) و(فَعِل) و(فَعِيل)، وعلى الأصوات (فُعَال) و(فَعِيل) والألفاظ الدالة على الآلات والأدوات وردت على أوزان متعددة منها (فاعول)، وقد وردت على وزنها عدد من الكلمات مثل: (الساطور)، و(القارورة)، و(الكافون)، و(الماعون)، و(الناقوس)، ووردت كلمات أخرى على وزن (فَعَال) ك(العنان) و(الشجار) و(الدِّثار) و(الإزار) و(الغطاء)، وأتت غيرها على وزن (مَفْعَل) ك (مِرد) وأخرى على وزن (مَفْعَال) ك (مِفْتَاح)، ولم يذكر النحاة إلا هذين الوزنين الأخيرين، ولعل ما ورد منها أقل مما ورد على وزن (فَعَال).

د - تفاوت الصيغ في حيويتها واستعمالها، فالصيغ والأوزان التي استخرجها واستقصاها علماء اللغة ليست متساوية في استعمالها فبعضها مستعمل حركي، وبعضها الآخر راكد جامد وثابت في مكانه، وبعضها الآخر ميت بعيد العهد بالحياة.

هـ - تولد صيغ جديدة<sup>183</sup>، حيث نلمح نشوء صيغ جديدة في عصور العربية بعد الإسلام، وبعد العهد الذي بدئ فيه بتدوين العربية كالصيغة الناشئة من إضافة الألف والنون بعد ياء النسب نحو: (روحاني) و(جسماني) ومن إضافة ياء النسب مع التاء للدلالة على المذهب ك (الصوفية) و(السلفية) و(المادية) و(الاشتراكية).

وقد ثبت في بعض اللهجات العربية ابتداء بعض الصيغ القريبة من القديمة والمشابهة لها أو ابدال الصيغة الدالة على معنى بصيغة أخرى وذلك كصيغة (تَفْعَلَن) في اللهجة الشامية (تَكْسَلَن) و(تَحْمَرَن)، وصيغة (انْفَعَل) في اللهجة المصرية للأفعال المطاوعة، ووزن (فَعَّال) مع تاء التأنيث ومن دونها لتسمية الآلات والأدوات الحديثة في كثير من اللهجات العربية وذلك نحو: (سَخَّانَة، وِبَرَّادَة، وِسَّمَاعَة، وِعَسَّالَة...)، وكاستعمال وزن (فَعِيل) في اللهجة

<sup>181</sup> - ينظر أدب الكاتب، ابن قتيبة، ص 249 وما بعدها و ص 264 وما بعدها

<sup>182</sup> - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 138.

<sup>183</sup> - المرجع نفسه، ص 139-140.

الشامية كذلك لمبالغة اسم الفاعل بدلا من (فَعَّال)<sup>184</sup>، وقد دخلت بعض هذه الألفاظ في اللغة الفصحى ولم ينكر استعمالها أحد لإمكان تخريجها على قواعدها وأصولها وذلك مثل: (سَيَّارة، وبرَّادة، ودِرَّاجة...).

## 7-تطور الأبنية والأوزان:

كشفت الدراسة السابقة على ملاحظة جامعة بينها تدل على تبدل وتطور في الأوزان العربية، حتى لو كان هذا التطور بطيئا امتد خلال عصور طويلة سواء أكان ذلك في شكلها ومبناها أو في دلالتها ومعناها. ولعله من المفيد القول إن الفكرة التي تبدو للمتأمل لأوّل الأمر في أمر الصيغ والأوزان في العربية هي أنّها كانت ولا تزال نفسها لم تتبدل منذ عهد امرئ القيس والشنفري، وغيرهما، فالفاعل من كل مادة يدل على من فعل الفعل، والمفعول يدل على من وقع عليه الفعل، وكذلك حال الصيغ الأخرى، فهي عنصر من عناصر الثبات والاستمرار، والاتصال في اللغة العربية نقلت قوالبها الرائعة والأفكار والمعان من جيل إلى جيل خلال عصور طويلة، وهذا لا يمنع في ذات القول من أن نلمس وجود تطور بطيء جدا نكاد لا نشعر به وهو لا يحول دون أداء الصيغ لهذه الوظيفة المرتبطة بها، وهذا التطور الخفي لا يشابه ما في اللغات الأخرى من تبدل سريع لا تفرضه الخاصة ولا تتطلبه الحياة، يجعل اللغة لغات مختلفة ويقطع ما بين الأجيال.<sup>185</sup>

إن دراسة الصيغ والأوزان في العربية يستوجب دراسة شاملة واستقراء تام للأوزان في جميع عصور العربية، كما يستوجب الرجوع إلى دراسة الموضوع بنفسه في اللغات السامية منذ عهدها الأولى التي كانت فيها على اتصال واشتراك.

ويمكن القول إن التغيير الطارئ على الأوزان في أطوارها المتعاقبة واقع على بنائها أو على معناها ومدلولها، أما تطور بناء الأوزان وشكلها فهو الأقل وقوعا والأبطأ حدوثا كما يلاحظ من ثبات أوزان العربية خلال عصور متطاولة<sup>186</sup>، ويذكر بعض الباحثين<sup>187</sup> أن وزن (فاعيل) و(فاعول) و(فاعال) من أقدم الأوزان وأن (فاعيل) بتطورها ولدت (فاعل) و(فَعِيل) ومنها تولد وزن(فَعْل)، وأن (فاعول) ولدت (فعول)، وأن (فاعال) ولدت (فاعل) و(فَعَّال) ومنها تولد(فَعَّل)، وهذا الرأي كما يرى محمد المبارك يحتاج إلى نظر قبل البت فيه تحقيقا أو نفيًا.<sup>188</sup>

184 - مثلا يقولون: فلان (أَكِيل) و(شَرَّيب) و(شَعِيل) و(سَبَّيح) مع الإبقاء على الفصحى الموروثة مثل: (سَرَّاق) و(كَنَّاب) وهكذا...

185 - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 140-141.

186 - المرجع نفسه، ص 141-142.

187 - مقدمة لدرس لغة العرب وكيف تضع المعجم الجديد، عبد الله العلابي، ص 170.

188 - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 142.

أمّا تطور معاني الأوزان، ودلالات الصيغ فهو أظهر وأوضح لما له من شواهد في عصور العربية المعروفة المدونة وهو أكثر وقوعاً وأسرع حدوثاً.

ومن أبرز الأمثلة الدالة عليه الآلات والأدوات فإن أقدم الألفاظ التي تدل على ذلك وردت على وزن (فاعول) وهي محدودة قليلة، ولكن العدد الأكبر منها جاء على لفظ (فَعَال) كالألفاظ الدالة على الألبسة (إزار، رداء، حِمار، نِطاق، حِزام، نِقاب، لباس، وغيرها)، وكالألفاظ الدالة على مرافق أدوات أخرى متنوعة (كاللِّجام، والعِنان، والوِعاء، والسِّقاء، والغِطاء، والفِراش، والكِتاب، والوِقاء، والقِرَاب...). وهي ألفاظ كثيرة وقديمة ترجع إلى ما قبل الإسلام. ثم نجد ألفاظاً على وزن (مَفْعَل) أو (مِفْعَال) ك (مِجَن، ومِبرد، ومفتاح).

وإذا انتقلنا إلى العصور الحديثة وجدنا اتجاهها في اللهجات العامية العربية إلى استعمال وزن (فَعَال) للدلالة على الآلة المستحدثة، فهل هذا يعني أن الدلالة على الآلة تبدلت الصيغة الدالة عليها خلال العصور من (فاعول) إلى (فَعَال) إلى (مَفْعَل) ، و(مِفْعَال) إلى (فَعَال) في العامية مع تخريجها في الفصحى؟ وإذا كانت هذه الصيغ موجودة كلها فقد جرى التبدل في الانتقال من واحدة إلى أخرى وأدى ذلك بالطبع إلى أن الصيغ تتغير دلالتها وتتطور معانيها، ولكن الصيغة التي يتبدل معناها تبقى محتفظة بالمعنى القديم فتصبح ذات دلالتين أو تنتقل إلى المعنى الجديد وتبقى الألفاظ التي صيغت على مثالها في الطور الأول على حالها ولكن عددها يبقى محدوداً فلا يزيد.<sup>189</sup>

ولا شك أن تجاوز المعاني وأسباب انتقال الوزن أو البناء من معنى إلى آخر من ذلك أن المبالغة في الفعل في صيغة (فَعَال) تقتضي شدة التلازم بين الفاعل والفعل، ولهذا استعملت للدلالة على (النسب) و(الحرفة) ولو لم يكن منها فعل ك (العطَّار) من العطر، و(السَّمَّان) من السم، و(الزَّيَّات) من الزيت، و(الفنَّان) من الفن، ومن هذا القبيل نشوء معنى السببية في صيغة (مَفْعَلَة) وهي في الأصل تدل على المكان فنقلت من الدلالة على المكان إلى الدلالة على السبب وأضيفت إليها التاء للتفريق.

وعلى هذا النسق من التأويل يمكن أن نقول إن الآلة التي تؤدي عملاً أو يؤدي بها عمل من الأعمال تحدث ذلك النوع من العمل بكثرة، ويكون بينها وبينه تلازم، وبذلك يمكن أن يطلق عليها لفظ (فَعَال) مشتقاً من نوع العمل الذي تقوم به ك (غَسَّالة، وكسَّارة) لكثرة ما تغسل أو تكسر، و(برَّاد) لملازمته للبرد، أو لتبريده إحدائه للبرد.<sup>190</sup>

189 - المرجع السابق، ص 143.

190 - المرجع نفسه، ص 144.

وختلاصة القول: يمكن أن نؤكد جازمين إن دراسة أبنية الألفاظ في أطوارها الماضية وأشكالها الحاضرة تفتح لنا الطريق للنظر في حل مشكلاتنا الحاضرة المرتبطة بهذه الناحية من لغتنا وتضمن لنا تغطية حاجاتنا من المبتكرات والتقنيات الحديثة .